

الجذور الفكرية والمواقف السلوكية

محمد خير موسى

KİTAP SARAYI
كتاب سراي

"القُبيسيَات"

الجذور الفكرية والمواقف السُلوكية

اسم الكتاب	القبيسيات، الجذور الفكرية والمواقف السلوكية
تأليف	مُحَمَّد خير موسى
الطبعة	الأولى – ٢٠٢٠
الناشر	كتاب سراي–اسطنبول
القياس	١٧×٢٤
ترقم دولي	

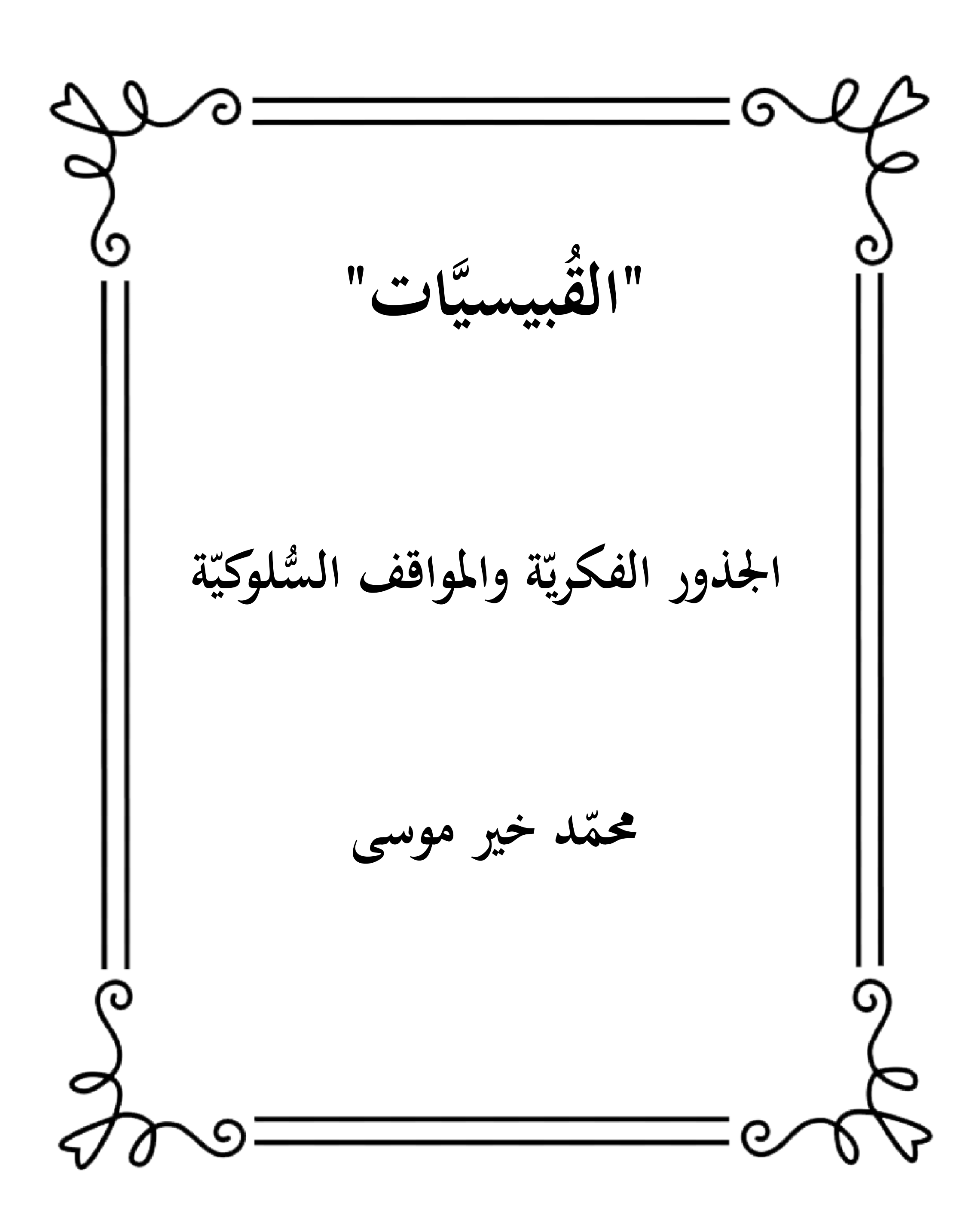
الطبعة الأولى – ٢٠٢٠

الناشر



كتاب سراي – اسطنبول – الفاتح – جانب مسجد الخرقة الشريفة

+905340558303 – sarayikitap@gmail.com



"القُبيسيَّات"

الجذور الفكريّة والمواقف السُّلوكيّة

محمّد خير موسى

مقدّمة

الحمد لله وحده، والصّلاة والسّلام على من لا نبيّ بعده، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان؛ وبعد:

فإنّ الحديث عن الجماعات الدّعوية المعاصرة حديثٌ شائكٌ وعر، يختلفُ عن الحديث عن الجماعات والتيّارات التي طواها التّاريخ من جهاتٍ عدّة أهمّها أنّ هذه الجماعات ما تزال حاضرةً، شهودُها أحياء، وصنّاعُها بين حيّ أو حديث عهدٍ بوفاة، ممّا يجعل تشكيل الصّور الكليّة أشدّ صعوبةً؛ ففرقٌ كبيرٌ بين النظر إلى حقبةٍ غابرةٍ بعين التّاريخ التي ترى المشهد من فوق وتستطلع تفاصيلَه بتأنٍ وتعرفُ مداخلة ومخارجه وبداياتِه وخواتيمه، وبين تقليب النّظر من داخل البنيان وبذل الجهد في استكشاف غرفه وممرّاته ومداخله ومخارجه.

والبحثُ في الجماعات الدّعويّة المعاصرة عمومًا ينبغي أن تُبذل فيه الجهود المضاعفة وتشحذَ فيه الهمم الاستثنائيّة، إذ إنّ فهم هذه الجماعات والتيّارات من الضّرورة بمكان لفهم الواقع المحيط وتفسير الكثير من حيثيّاته والوقوف على ما وراء الستارة من عوامل التدافع المجتمعيّ التي ترسم صورته المعاينة وتصنع حركته الظّاهرة

ويكتسب الحديثُ عن القبيسيّات أهميّةً خاصّة كونهنّ أول جماعة دعوية نسائيّة خاصة وخالصة بل هن الجماعة الدعويّة النسائيّة الوحيدة التي شقّت طريقها

وصنعت نفسها بعيدًا عن الجماعات المشيخيّة والدعويّة القائمة، وغدت رقمًا صعبًا في العمل الدعوي المتعلّق بالمرأة.

وهي جماعة دعويّة نسائيّة عابرةٌ للحدود فلا تكاد تجد دولةً من بلاد الشام أو دول الخليج ومصر إلّا ولها فيها وجود، بل إنّها صنعت لنفسها اسمًا وحضورًا في تركيا وأوروبا وأميركا وكندا.
ولها تأثيرها على أجيالٍ واسعة من النساء والفتيات والشّابات، وكان لها دور حقيقيّ في رسم وجه المجتمع السّوريّ في فتراتٍ عديدة، كما أنّ تأثيرها تعدّى الشابات ليصل إلى شرائح مجتمعيّة عديدة من أهمها العلماء والتّجار وبعض مراكز القرار.
كما أنّها جماعةٌ أثارت جدلًا واسعًا لا سيما عقب اندلاع الثّورة السّوريّة على نظام بشّار الأسد، وافترق الناس فيها بين محبٍ لا يرى إلّا الصّورة الإيجابيّة ومبغضٍ لا يرى إلّا صورةً شيطانيّة تلبس لبوس الدّين.

فكان لا بدّ من السعي لإنتاج دراسةٍ منصفةٍ بعيدةً عن الأحكام المسبقة تقيّم التجربة فكريًّا وسلوكيًّا بإنصافٍ ومنهجيّة.

- **ملحوظات على عموم ما كُتب عن القُبيسيّات:**

قبل الشّروع في الكتابة عن القُبيسيّات جمعتُ عموم ما كُتب عنهنّ من كتب ومقالات ودراسات، فكان يزيد عن تسعمئة صفحة وقرأتُه بتأنٍّ بالغ، فوجدت أنّ الغالبيّة العظمى من هذا المكتوب يتّسم بسمات عدّة:

الأولى: غالب ما كُتبَ يناقشُ المواقف السّياسيّة للقبيسيّات من الثّورة السّوريّة، ويتحدّث عن الجماعة في مرحلة ما بعد حكم بشّار الأسد، بل مرحلة ما بعد اندلاع ثورة ٢٠١١م بتفصيل بالغ مع إجمالٍ مُخلّ عند الحديث عن الفكر والمنهج الدّعوي، مع إغفال لمراحل تطوّر الجماعة في الستينات وما بعدها في عهد حافظ الأسد.

الثّانية: انطلقَتْ الكتابة عند الغالبيّة العظمى ممن كتب عن القبيسيّات من تحيّزات وأحكام مسبقة يُراد إثباتُها، فمن يحمل قناعة مُسبقة حول الجماعة كتب وهو يتبنّى هذه القناعة، فجاءت كتابته محاولةً للتدليل على القناعة المسبقة وإثباتِها، وهذا يخالف المنهج العلميّ والبحثي القائم على التّجرّد عن القناعات المسبقة قبل البحث والتّصنيف، وهذه أولى خطوات الإنصاف والعدل في القول.

الثّالثة: اللّغة الاتّهاميّة، فالكثير ممّا كتتب عن القبيسيّات يتّسم بلغة اتّهاميّة كالاتهام بالماسونيّة أو العمالة للمخابرات، أو أنّها جماعة من صنيعة النّظام أو الإغراق في الاتّهامات الأخلاقيّة وغير ذلك من الاتّهامات التي لا تصحّ في الإطلاق على

عموم الجماعة، وإن صحّت على بعض الأفراد في أيّة جماعة من الجماعات فإنّه لا يجوز تعميمها، وتفقد هذه اللغة مصداقيتها العلميّة والبحثيّة، رغم أنّنا لا نستطيع إنكار شعبويّة هذا النوع من الكتابات وتلقّف الجماهير لها وتأثيرها في الوعي العام.

- **ما مصادرك؟!**

وهذا سؤال حقّ وواجب على كلّ من يتحرّى الحقّ ويسعى للوصول إليه.

وممّا يجب تبيانُه في هذا المقام أنني درستُ في دمشق وتنقّلت بين علمائها ودعاتِها، ومعرفتي بمدارسها الدّعويّة ليست معرفة القارئ عنها، بل معرفة المعايش لها عن كثب.

وبعد أن عزمت على كتابة هذا الكتاب، قرأت ما كُتب عن القبيسيّات من أبحاث ومقالات من الاتجاهات المختلفة، وتعاملت معها بمنطق التمحيص والتّثبّت والنّقد العلمي.

ولكنّ أهمّ مصادري على الإطلاق هيَ الشّهادات الحيّة من داخل الجماعة، وذلكَ عبر التواصل المباشر مع أكثر من خمسٍ وعشرين من الآنسات والمشرفات والطّالبات القبيسيّات، بعضهنّ خرج من الجماعة والبعضُ الآخر ما زلن فيها في مراتب متعدّدة؛ فبعضهنّ في الصفّ الأوّل وأخريات في الصفّ الثّاني، وقد كنت أعدّ لكلّ واحدة منهنّ مجموعة من الأسئلة وأتلقّى الإجابات الصّوتيّة والمكتوبة، وكنت أتعامل مع الإجابات وفق رؤية نقديّة قائمة على التّحقّق والتّثبّت ومقاطعة

الإجابات مع بعضها من جهة، ومع ما هو مسطور في الأبحاث والمقالات المنشورة من جهة ثانية، فكانت حصيلة هذه المقابلات الصّوتية خمسًا وستّين ساعةً صوتيّة، وأمّا المقابلات المكتوبة فكانت مئةً وثمانين مقابلةً مكتوبة.

وقد تحرّيتُ في هذا الكتاب الإنصاف والبُعد عن الانجرافات العاطفيّة سلبًا أو إيجابًا، سواء في المكتوب أو في الشّهادات المسموعة.

ولا بدّ في الختام من التأكيد على أنّ جهدي هذا كأيّ جهدٍ بشريّ يبقى قاصرًا ومعرّضًا للزلل والنقص وقابلًا للنقد والمناقشة، والله أسأل القبول والمغفرة، والحمدلله في بدءٍ وفي ختمٍ.

محمّد خير موسى

اسطنبول

شوال، ١٤٤١ هـ

حزيران "يونيو" ٢٠٢٠ م

فهرس المحتويات

* * *



"القُبيسيَّات"

الجذور الفكريّة والمواقف السُّلوكيّة

التّأسيس والتّسميات

حارَ النّاسُ في "القبيسيّات" توصيفًا وتقييمًا؛ فهل هنّ حركةٌ دينيّة نسويّة، أم جماعةٌ دعويّة، أم تنظيمٌ سرّي، أم كيانٌ مغلق، أم ولادةٌ طبيعيّةٌ لطبقة اجتماعيّة جديدةٍ تفرضها حركة تدافعُ المجتمعات؟!

وكأيّ ناشئٍ في الظلّ متواريًا عن الأنظار؛ ينسجُ النّاسُ حولَه الحكايات والأساطير، ويستحضرونَ المؤامرةَ ومكر الأعداء؛ غدا النّاس في الحديث عن القبيسيّات يخلطون القليل الواقعي بالكثيرِ المُتَخيَّل.

وهنا تغدو الحاجةُ مُلحّةً إلى دراسة شاملةٍ معمّقةٍ تنحاز للحقيقة بعيدًا عن الأحكام المتعجّلة، غير خاضعةٍ لعينِ الرّضا الكليلة عن كلّ عيبٍ ولا لعين السُّخط التي لا تبدي إلّا المَساويا.

الآنسة "منيرة" .. البدايةُ من هنا.

"منيرة قبيسي"؛ الفلسطينيّةُ الدّمشقيّة، كان والدُها يتنقّلُ بين فلسطين وحوران تاجرًا؛ غير أنّ استقرارَه وبعض إخوانه كان في دمشق مع بدايات القرن الماضي.

وفي دمشق رزق عشرة من الأبناء؛ ستّة ذكورٍ وأربع بنات منهنّ "منيرة" التي ولدت عام ١٩٣٣م.

نشأ الأبناء في بيئة علم وتجارة، فكانوا كفاءاتٍ علميّةً وتجّارًا على نهج والدهم، فمنهم على سبيل المثال د. "محمّد بهجت قبيسي" المولود عام ١٩٤٠م ويشغل موقع نائب رئيس اتّحاد المؤرّخين العرب وله عشرات المؤلّفات في التّاريخ والآثار.

اللّافتُ في الأمر كان إرسال الأب ابنته "منيرة" إلى مدرسة حكوميّة في الوقت الذي كان فيه أبناء الطبقة المتديّنة يرفضون إرسال أبنائهم ذكورًا وإناثًا إليها، ويرسلونهم إلى المدارس الشّرعيّة في زمنٍ كان صراع الهويّات في المجتمع السّوريّ صريحًا وواضحًا.

دخلت "منيرة" بعد ذلك كليّة العلوم في جامعة دمشق في بيئةٍ كان التّعليم الجامعيّ عزيزًا مضنونًا به على الذّكور فكيف على الإناث؟! لتبدأ عقب تخرّجها بالتّدريس في حيّ المهاجرين، ممّا ساهم في وصولها إلى شرائح مجتمعيّة عريضة.

في رحاب "كفتارو"

كان جامع "أبو النّور" المعقل الرّئيس للطّريقة النقشبنديّة، حيث يمارس الشّيخ "أحمد كفتارو" نشاطه قريبًا من محلّ سكنى وتدريس الشّابّة "منيرة"، وكان أحد أعمامها قريبًا من الشّيخ "كفتارو" ففتح لها الطّريق لالتزام دروسه وتلقّي التربيّة على يديه.

أعجبت "منيرة" بالشّيخ "أحمد"، وهو بدوره أولاها عنايةً خاصّة، فكان من الطّبيعيّ أن تثور نوازع الحسد عند قريناتِها لما يرين من تميّز لافت فيها.

غير أنّ لحظة المفاصلة بينها وبين جماعة "كفتارو" بدأت حين غدت تلميذتها التي تصغرها بزمن غير يسير تُزاحمها على الصّدارة، كانت هذه التّلميذة "وفاء" بنت الشّيخ "أحمد كفتارو"، وكانَ هذا كافيًا لترى نفسها الأحقّ بصدارة عمل النّساء الدّعوي في الجماعة، ولو كان المنافسُ لها هو آنستها.

انسحبت الآنسة "منيرة" من جماعة كفتارو دون أن تدخل في أيّة معركةٍ معهم، بل حرصت على بقاء الصّلة الإيجابيّة بالشّيخ "كفتارو" وعموم الجماعة حتّى حين.

مشاربُ جديدة

تحوّلت الآنسة "منيرة" لحضور مجالس الشّيخ "عبد الكريم الرّفاعي" الذي تُنسب له النّهضة المسجديّة في دمشق في القرن الماضي، وتوطّدت علاقتها مع "جماعة زيد" التّابعة له.

وخلال هذه الفترة التحقت الآنسة "منيرة" بكليّة الشّريعة في جامعة دمشق، وهناك نهلت العلم من العديد من العلماء الأكاديميين المنحدرين من مشارب فكريّة متعدّدة.

واحتكّت عن قرب بـ"الإخوان المسلمون" الذين كان علماؤهم المؤسسون والمهيمنون في كليّة الشّريعة وأبرزهم د. "مصطفى السّباعي" ود. "محمّد المبارك"، وكذلك الأستاذ "عصام العطّار" الذي كان خطيب مسجد الجامعة المتربّع في حديقة كليّة الشّريعة.

أثرُ تعدُّد المشارب

إنَّ تعدُّد المشارب الفكريّة وتنوّعها ساهم في تشكيل الآنسة "منيرة" فكريًّا وتربويًّا بطريقة انعكست على منهجها في العمل الدّعوي.

فهي ذات مشربٍ "صوفيّ طُرُقيّ" بانتمائها المؤقّت لجماعة "كفتارو"،

ومشرب "صوفيّ علميّ" بالتزامها مجالس الشّيخ "عبد الكريم الرّفاعيّ"، ومشرب "أكاديميّ حركيّ" بدراستها في كليّة الشّريعة.

وبناءً على ذلك يمكننا التّأكيد على أنَّ المقولة التي تردّدها غالبيّة الدّراسات والمقالات بأنَّ "القبيسيّات" خرجن من رحم جماعة "كفتارو"؛ غير صحيح البتّة.

وكذلك فإنَّ القول بأنَّ القبيسيّات امتدادٌ لجماعة "زيد" أو انعكاسٌ لفكر جماعة "الإخوان المسلمون" أيضًا قول غير صحيحٍ على الإطلاق.

الظّروف المحيطة بالنَّشأة

مع انقلاب حزب البعث في ستينات القرن الماضي في سورية؛ بدأت تتبلور مدارس العمل الدّعوي وتزيد من نشاطها على وقع استشعار تهديد وجوديّ، إذ اقتنع العلماء بأنّ حزب البعث يهدف إلى سلخ المجتمع عن هويّته وانتمائه الإسلاميّ.

كانت معاقل العمل الدّعوي والإسلاميّ الرّئيسة في دمشق هي: جماعة "زيد" التّابعة لـ"الشيخ عبد الكريم الرّفاعي"، وجماعة "الميدان" التّابعة للشّيخ "حسن حبنَّكة"، وجماعة "الفتح" التّابعة للشّيخ "صالح فرفور"، وجماعة الشّيخ "أحمد كفتارو"، وجماعة "الإخوان المسلمين".

حرصت الآنسة "منيرة" على الصّلة الجيّدة مع هذه المدارس وغيرها وعدم إحداث أيّ صدام مع أيّة جماعة، وهذا يؤكّد امتلاكها مؤهّلات قياديّة جعلتها قادرة على إحداث تأثيرٍ في المجتمع.

وهكذا بدأت الآنسة "منيرة" تنشط بشكلٍ فاعلٍ في فضاء المجتمع النسائيّ بحركة دائبةٍ ساعدها في ذلك رفضها الزّواج وعدم إثقالها بأيّة ارتباطات معيقة.

كما ساعدها بشكلٍ كبيرٍ وجود الفراغ الذي لم يملأه غيرها في الواقع النّسويّ، ممّا ساهم في الإقبال الكبير عليها كونها تتصدّى لمحاولات محو الهويّة في واقع المرأة المسلمة في سورية.

وهكذا بدأت تتشكّل ملامح جماعةٍ جديدةٍ في دمشق متخصّصة بالدّعوة في الوسط النّسائيّ، وتلقى دعمًا من مختلف الجماعات الفاعلة، ولها منهجها الخاصّ وآليّات عملها المختلفة.

الانتشار والتّسميات

بدأت الدّعوة القبيسيّة تنتشر ببطء في بعض المحافظات السّوريّة، وبقيت حلب عصيّةً على الاختراق القبيسيّ بسبب سطوة الكيانات الصّوفيّة وإحكام قبضتها على المشهد.

و"القبيسيّات" هو الاسم الذي تعارف النّاس على إطلاقه عليهنّ وهو نسبة إلى الآنسة المؤسِّسة "منيرة قبيسي".

غير أنَّ عموم القبيسيّات يرفضن هذه التسمية، ويؤكّدن في كلّ محفل على تسمية "الدّعوة" للدلالة عليهنّ، فهنّ بنات "الدّعوة" وأخوات "الدّعوة".

وتنتشرُ القبيسيّات في عددٍ من الدّول بأسماءٍ مختلفة وهذا لا يغيّر من حقيقة انتمائهنّ.

ففي لبنان كان وصول القبيسيّات على يدي "أميرة جبريل" وهي فلسطينيّة تقيم في دمشق، وشقيقة "أحمد جبريل" قائد الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين "القيادة العامّة" الذي يدين بالولاء المطلق للأسد الأب والابن.

غير أنّ "أميرة جبريل" انسحبت من المشهد وأخلَت السّاحة للدّاعية اللبنانيّة "سحر حلبي" لتتصدّر المشهد القبيسي في لبنان، وأصبحت القبيسيّات في لبنان ينسبن لها ويطلق عليهنّ "السّحريّات".

وإلى الأردن نقلت الدّاعية الدّمشقيّة "فادية الطّبّاع" الدّعوة القبيسيّة، فصار يطلق عليهنّ في الأردن "الطّبّاعيّات"، أو "بنات فادية".

أمّا الكويت فجاءتها "أميرة جبريل" عقب مغادرتها لبنان لتكون لها اليد الطّولى في نقل نشاط القبيسيّات؛ حيثُ أسَّست "جمعيّة بيادر السّلام النّسائيّة" التي تعدّ المظلّة التي تعمل القبيسيّات تحتها، ويطلق عليهنّ في الكويت "بنات البيادر".

وأما في فلسطين فكان دخول القبيسيات إليها ابتداءً من مدينة نابلس التي تلقّب "دمشق الصغرى"، وذلك عبر الآنسة "فدوى حمّيض" وانتشرت إلى عموم فلسطين، ويطلق عليهنّ "بنات فدوى".

كما انتشر نشاط القبيسيّات فوصل إلى مصر وكندا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ومع موجات اللجوء الجديدة بدأ الانتشار في تركيا والدّول الاسكندنافيّة.

ورغم هذا الانتشار الواسع إلّا أنّ العمل القبيسيّ ما يزال ينتمي للمنهجيّة الدّعويّة والتربويّة والسّلوكيّة التي أرست دعائمها الآنسة "منيرة قبيسي".

ولكن ما هي منهجيّة التّأثير وآليّات الاستقطاب التي تتبعها القبيسيّات؟

منهجيّةُ الاستقطاب والشّرائح المُستَهدفة

"تولدُ أيّةُ جماعةٍ وعينُها على الأتباع؛ فهم عنوان وجودها الحقيقيّ ومقياسُ تأثيرها ومؤشّرُ إنجازِها.

والجماعات الإسلاميّة تتشابه في آليّات الاستقطاب؛ والقبيسيّات اللّواتي انتشرن انتشارًا واسعًا يفرضن علينا سبر أغوار منهجهنّ المتّبع في الاستقطاب لتكتمل الصورة.

إنَّ أيّة جماعة تطمحُ أن تكون رقمًا صعبًا، فلذا تحدّد نوعيّة الأتباع، وعينها على جيوب أهل الخير فالمال هو روح المشاريع، ويكون همّها تأمين الحماية لوجودها ومنتسبيها؛ فالحماية هي العمود الفقريّ الذي يتيح لأيّة جماعة الوقوف على قدميها، والقبيسيّات لم يخرجن عن هذا الإطار العام".

عليكم بالنّخبة المثقّفة

لا تخطئ عين النّاظر بأنَّ دعوة القبيسيّات قامت بالدّرجة الأولى على استقطاب الفتيات الجامعيّات.

فقد ركّزت الدّعوة على استهداف الطّالبات والخرّيجات الجامعيّات، ممّا ساهم في طبع الجماعة بطابع العلم والفكر والثّقافة، وجعلها في التّصوّر الذّهني جماعةً نخبويّة، وقد أسهم ذلك في إعطاء موثوقيّة في المحيط الاجتماعيّ فكان عامل جذب إضافيّ.

وهذا الاستهدافُ النوعيّ لشريحة الجامعيّات كانت له إيجابيّات كبيرة على سمعة الجماعة ونظرة المجتمع لها؛ غير أنّه انطوى في الوقت ذاته على سلبيّات عدّة من أخطرها بروز شعورٍ واسعٍ بالنّخبويّة والأفضليّة أدّى إلى استعلاء بنات الجماعة على غيرهنّ من المتديّنات الأخريات من منتسبات الطّرق الصّوفيّة أو منتسبات حلقات المشايخ الآخرين، كما أدّى إلى حدوث فجوة اجتماعيّة بين القبيسيّات وشرائح المجتمع من غير المتعلّمات.

هل اقتصرت دعوة القبيسيّات على الطّبقة الثّريّة وبنات المسؤولين؟!

يزدادُ الانطباع بأنَّ القبيسيّات اقتصرن في دعوتهنّ على الطّبقة الثّريّة، وهذا الانطباع له ما يبرّره، لكن التّمحيص والتّدقيق يجعلنا نعاينُ بأنّ القبيسيّات استهدفن الشّرائح الاجتماعيّة المختلفة من ثريّات وفقيرات، ومن بنات الرّيف وبنات المدينة بدعوتهنّ، وإنَّ أكثر مرتادات الحلقات هنّ من بنات الطبقة المتوسّطة ماديًّا.

ولكنّ كلّ هذا لا ينفي مطلقًا بأنَّ الطبقة الثريّة كانت في عين الاستهداف القبيسيّ، وهذا هو حال عموم الجماعات التي تريد أن تستمرّ وتبقى فهي تبحث عن تمويلها عند أهل المال والتّجارة.

وإنَّ أهمّ أسباب تشكّل الانطباع عن القبيسيّات بأنّهنّ دعوة خاصّة بالأثرياء أمران:

الأوّل: كون مؤسِّسة الجماعة والغالبيّة العظمى من آنسات الطّبقة الأولى هنّ من الثّريّات.

فالآنسة "منيرة قبيسي" تقيم الآنَ في حي الرّوضة الدّمشقيّ، وهو حيّ معروف بالثّراء الكبير لساكنيه.

ومن هؤلاء الآنسات الثّريّات من رموز الجماعة على سبيل المثال؛ الآنسة "سميرة الزّايد" صاحبة مؤلّفات السّيرة النبويّة، والآنسة "خيريّة جحا" المعروفة باسم الآنسة

"خير"، والآنسة "نُهَيدة طرقجي"، والآنسة "رفيدة كزبري"، وكذلك كانت أشهر آنسات القبيسيّات في السّعوديّة الآنسة "رجاء قلاجو أم إبراهيم" رحمها الله مشهورة بثرائها.

الثّاني: استقطاب عدد كبيرٍ من زوجات الأثرياء وبناتهم، وكذلك بنات المسؤولين ذوي المناصب في الدّولة؛ ومن هؤلاء بنات "محمود الأبرش" رئيس مجلس الشّعب السّوري السّابق ليكنّ طالبات في الحلقات، ووجودهنّ كان سببًا في تحقيق دعم مالي للجماعة واستجلاب هامشٍ من الأمان.

والحرص على كسب هذه الشّريحة انعكس سلوكًا غير متوازن عندَ عددٍ من الآنسات من خلال التّمييز بين الطّالبات داخل الحلقة بناء على الوضع الماديّ والحالة الاجتماعيّة ممّا تسبّب بحساسيّات كبيرة طفا العديدُ منها على السّطح.

"الزّيجات" السّلاحُ العابرُ للجماعات

من أهمّ الوسائل التي استثمرتها القبيسيّات في نشر الدّعوة وحشد الأصوات المنافحة عنها واستجلاب التّمويل والدّعم الماليّ هو الزّواج الذي كان يجمع بين القبيسيّات –سواء كنّ آنساتٍ أو طالبات– مع كبار الدّعاة وقادة العمل الإسلاميّ والأثرياء والتّجّار.

والقبيسيّات عمومًا من الشّخصيّات الجاذبة للزّواج عند الشريحة المتديّنة؛ فهنّ يجمعن بين متانة الالتزام، وحسن السّمت الظّاهريّ في الحجاب والمانطو، والثّقافة الجامعيّة.

فمن العلماء الكبار الذين تزوجوا منهنّ الدّكتور "محمّد سعيد رمضان البوطي" إذ كانت زوجته الثّانية "أميرة العرجا" من القبيسيّات، وقد تعلّق بها تعلُّقًا شديدًا، ورثاها بمقال يفيض عذوبةً وألمًا، عنونَه باسمها "أميرة" ونشره في كتابه "من الفكر والقلب".

وكذلك المستشار الشّيخ "فيصل مولوي" أبرز قيادات الإخوان المسلمين في لبنان ومن أبرز علماء العالم الإسلاميّ، كانت زوجته من القبيسيّات السّحريّات.

ومن قادة العمل الإسلامي الكبار الذين تزوجوا من قبيسيّات القيادي المصري الأستاذ "يوسف ندا" أحد أبرز رموز جماعة الإخوان المسلمين وزوجته من الآنسات القبيسيّات الدّمشقيّات واسمها "آمال الشّيشكلي" وهي شقيقة الآنسة

"دلال الشّيشكلي" التي تعدّ من أهمّ آنسات القبيسيّات وقد توفيت قبل الثّورة السّوريّة بعمر أربعة وخمسين عامًا، و"دلال" و"آمال" هما ابنتا أخ "أديب الشيشكلي" الرّئيس السّوري السّابق.

ومن كبار التّجّار والأثرياء الذين تزوجوا من آنسات الطّبقة الأولى في القبيسيّات "هيثم السّيوفي" الذي تزوّج من الآنسة "نُهَيدة طرقجي"، وأمّا أختها "رصينَة طرقجي" فهي زوجة الدّكتور "محمّد الهوّاري" الذي توفّي في "آخن" في ألمانيا عام ٢٠١٥م، وهو من أبرز قيادات العمل الإسلامي المقرّبين جدًّا من الأستاذ "عصام العطّار".

هذه "الزّيجات" حقّقت عبورًا قويًّا للقبيسيّات إلى الفضاءات الإسلاميّة الأخرى، كما أنّها تعلِّلُ أحد أسباب التّعامل الإيجابيّ من كثيرٍ من أبناء الجماعات الإسلاميّة مع القبيسيّات.

ومما تجدرُ ملاحظته بأنَّ غالبيّة القبيسيّات المتزوّجات من علماء أو مفكّرين أو قادة رأي وعمل إسلاميّ، لم يتغيرن أو يتأثر انتماؤهنّ بالمحيط الأسريّ الجديد، بل كنّ هنّ المؤثّرات تأثيرًا يصبّ في نهاية المطاف في خدمة الجماعة.

الهبات والهدايا

القبيسيّات لسنَ متفرّدات في انتهاج هذه الآليّة في الاستقطاب التي يستخدمها الجميع مسلمين وغير مسلمين، ولكنّ الواقع الذي عاشته القبيسيّات في بيئة خاضعةٍ للسّطوة الأمنيّة من جهة، وفي خضمّ انتشارٍ واسع للمدارس والتيّارات والجماعات المشيخيّة جعلهنّ يفعّلن هذه الآليّة بطريقة كبيرة.

فكانت تُستخدمُ الهدايا حيث يمكن ردّ أي استهداف لهنّ من الجماعات المشيخيّة أو الجهات الرّسميّة.

كما كانت تقدَّم للشخصيّات المؤثّرة لتكون داعمًا لهنّ، ومثال ذلك "د. محمّد سعيد رمضان البوطي" الذي أهدته الآنسة "منيرة قبيسي" بيتًا في حي ركن الدّين الدّمشقي، رغم أنّه كان لا يقبل أيّة هدايا من المسؤولين الرّسميّين.

وممّا تميّزت به القبيسيّات تعميم ثقافة الإهداء داخل الجماعة؛ فكانت الهدايا تقدَّم للطالبات على نطاق واسع وفي مختلف مناسباتهنّ الشّخصيّة والاجتماعيّة مهما كانت هذه المناسبات بسيطة.

الانخراط في الوظائف الحكوميّة

كانت من الوصايا التي تشدّد عليها الآنسة "منيرة" ومن حولها من الآنسات، هي الطلب من الخرّيجات الجامعيّات الانخراط في الوظائف الحكوميّة، لا سيما سلك التّعليم الذي كان يحظى باهتمام غير مسبوق من الجماعة.

وعندما كانت تُعبّر إحداهنّ عن رغبتها بالعمل الخاص أو في شركة غير حكوميّة، يشدّدن عليها بضرورة وأهميّة العمل في مؤسسات الدّولة.

وهكذا نرى أنّ القبيسيّات انتهجن في الاستقطاب استهداف الشرائحَ النّوعيّة، والشخصيّات المفصليّة، والأصوات المؤثّرة، من أجل تأمين أرضية تنطلق من خلالها دعوتهنّ باتّجاه النساء في المجتمع وهي محاطة بالحماية ومرتكزة على الدعم الماليّ والمعنويّ.

وبعدَ هذا، هل القبيسيّات "تنظيم" أم مجرّد جماعة دعوية، وما قصّة ألوان الحجاب وما دلالتها، وماذا عن مأسسة الدّعوة القبيسيّة؟!

الهيكليّة واللّباس

"في المجتمعات المسكونةِ بالخوف تنمو الشّائعات كما تنمو البثور في جسد المريض المنهك.

وهكذا ثارت الشّائعات الكثيرة في المجتمع حول القبيسيّات بوصفهنّ "تنظيمًا سرّيًّا".

إنَّ المتفحّصَ للجماعة يعلم بأنّه ليست لديها هيكليّة تنظيميّة بالمعنى المتعارف عليه؛ فليس لديها لوائح داخليّة أو نظام أساسيّ، ولا تخضع لآليّات واضحة في التّصعيد القيادي أو التّدرّج في المراتب.

ولكنّ هذا لا ينفي وجود هيكليّة تحكم عمل الجماعة ضمنت لها الحياة والاستمرار والانتشار وعدم الذّوبان.

على أنّ هذه الهيكليّة تغدو من القضايا التي تعرفها بنات الجماعة بالتّسريب الهادئ والتّعميم المتعارف دون أيّ تصريحٍ بها أو جرأة على السّؤال عنها."

الرّتَبُ الصّامتة

تنقسم القبيسيّات إلى خمس رتب متدرّجة من الأعلى إلى الأدنى على النحو التالي:

١. الآنسة " الحجّة":

فإن أطلق هذان الوصفان دون اقترانهما باسم محدّد فإنّه لا يرادُ بهما غير الآنسة "منيرة قبيسي".

وهي رتبةٌ وحدها كحال الجماعات الدّعويّة في سوريا، حيث يكون شيخ الجماعة هو المرجع الأكبر الذي لا يُقطَع أمرٌ دونه.

٢. الآنسات الكبيرات:

ويمكن أن نطلق عليهنّ مجلس قيادة الجماعة، وهنّ المقرّبات جدًّا من الآنسة "منيرة"، ويلتقينها دوريًّا للبحث في شؤون الجماعة واتّخاذ القرارات اللازمة لها.

وهؤلاء مع الآنسة "منيرة" دون غيرهنّ يرتدين الحجاب الأسود فيُعرفنَ به.

٣. الآنسات المشرفات:

وهنّ آنسات الحلقات ومدرّسات المواد الاختصاصيّة، يلتقين بشكل دوريّ لتقييم عمل الحلقات، ويرتدين الحجاب "الكحليّ".

٤. طالبات الحلقات الخاصّة:

وهنّ اللواتي دخلن في جسم الجماعة بعد انتظامهنّ في حلقات خاصّة تؤهّلهنّ ليصبحنَ واعظاتٍ ومعلّمات القرآن بناء على معايير آنساتهنّ، ويرتدين الحجاب "البترولي؛ البحري" الذي بدأ ينحسر ليغدو الحجاب الأبيض هو الغالب عليهنّ.

٥. طالبات الحلقات المفتوحة:

وهؤلاء الطالبات اللواتي يحضرن الدّروس العامّة وليس لهنّ حلقة خاصّة بهنّ، ويرتدين الحجاب "الأبيض".

وهذا التّقسيم يقودنا بالضّرورة إلى الحديث عن نظام الحلقات الذي تقوم عليه هيكليّة الجماعة.

الحلقات ونظام "التّرفيع"

تنقسم الحلقات إلى أربعة أقسام، وهي:

الحلقة المفتوحة: ويطلق عليها "الدّرس العام" وهي حلقات استيعابيّة استقطابيّة، يتمُّ من خلالها اختيار من يدخلن في إطار الجماعة فينتقلن إلى الحلقة الثّانية.

الحلقة الخاصّة الأولى: وهي حلقات تضمّ بنات الجماعة، وتنعقد بشكل أسبوعيّ، تُدرّس فيها مناهج شرعية وتربويّة، ويتمّ التّرفيع منها بناء على اجتياز الاختبارات وتزكية الآنسة المشرفة.

الحلقة الخاصّة الثّانية: وتضمّ من تمّ ترفيعهنّ من الحلقة الخاصّة الأولى وهؤلاء يخضعن لتأهيل دعويّ مركّز، وبعضهنّ تترفّع للإشراف على الحلقات.

ويعتمد التّرفيع على تقييم الآنسة المشرفة لمدى ولائها للجماعة وتفانيها في خدمتها.

حلقة الآنسات: وتضمّ الآنسات المشرفات، وتدرس فيها مناهج خاصّة، كما أنّها ميدان التّباحث في تقييم الطّالبات وسير الحلقات.

حلقة الآنسات الكبيرات أو حلقة الحجّات: وتضمّ الآنسة "منيرة" ومعها قيادة الجماعة في حلقة يتمّ التباحث فيها أحيانًا ببعض القضايا الفكريّة والمنهجيّة، لكنّها في الأصل من أجل إدارة شؤون الجماعة.

* * *

إنَّ "**الحلقة**" في أدبيّات الجماعات الدّعويّة هي روح الجماعة، ويكون الهدف الرّئيس منها تعزيز الولاء والانتماء وتمتين الجبهة الدّاخليّة وبناء النّفس على الجنديّة والسّمع والطّاعة، وغرس منطلقات الجماعة الفكريّة والشّرعية وتوجهاتها العامّة في الأعضاء من خلال المناهج المختارة، وهكذا هي الحلقات عند القبيسيّات.

توحيد المظهر العام وتعليمات اللّباس الصّارمة.

لغايات تشكيل الذّات وتعزيز الانتماء، وتحقيق هويّة بصريّة خاصّة بها فرضت الجماعة على بناتها نظامًا صارمًا في اللّباس، بقي الالتزام به بحذافيره إلى فترة قريبة، غير أنَّ الأجيال الجديدة من الجماعة غدت أقلّ التزامًا ببعض التّفاصيل بسبب غضّ بصر الآنسات حفاظًا على التفاف البنات حول الجماعة.

وتعكس هذه التّعليمات هيمنة الآنسات على أدقّ التّفاصيل الخاصّة عند الطّالبات، وتخدم بنية الجماعة وهيكليتها العامّة بتحقيق صورة وسمت خاص متمايز، ومن هذه التّعليمات:

الحجاب: ألوان الحجاب المتنقّلة من الأبيض إلى الأزرق البترولي البحري إلى الكحلي انتهاءً بالأسود، ترتديها القبيسيّات بناءً على نوع الحلقة والرّتبة.

ويجب على جميع القبيسيات ارتداء الحجاب بطريقة موحّدة وهي "الرّبط بعقدة" ويمنع منعًا مطلقًا استخدام الدّبّوس في تثبيت الحجاب ويعدّ وضع الدّبّوس في

الحجاب إعلامًا بمفارقة الجماعة، وتقوم فلسفة الرّبط على أنّ العقدة تحمل معاني الثبات والمتانة.

ويمنع ارتداء الخمار الذي يغطّي الوجه كاملًا، كما يمنع النّقاب، ولا يُقبل التحاقُ المنقّبات أو المغطيات وجوههنّ بالجماعة.

واستثني من هذا القرار البنات من البيئات التي تعارف أهلها على تغطية الوجه، فسُمح لبعضهنّ بتغطية وجوههنّ.

أمّا اللّثام الذي يغطّي ما دون الأنف أو ما دون الفم المعروف "بالمنديل" فكان مسموحًا به فقط للآنسات الكبيرات أو في حالات استثنائيّة خاصّة.

المانطو: يجب على جميع القبيسيّات ارتداء المانطو المرتفع عن الكعبين بقدر أربعة أصابع على الأقلّ وصولًا إلى منتصف السّاقين، ويمنع منعًا باتًّا ارتداء الجلباب الطّويل.

كما يجب ارتداء "تنّورة مكسّرة" تحت المانطو، وشرط أن تكون "مكسّرة" شرط ضروري فلا تُقبَل "التّنورة السّحب" ولو كانت واسعة.

كما يمنع أن تكون "التنّورة" من الجينز ولو كانت واسعة، وعمومًا فإنّ لدى الجماعة حساسية عالية من "الجينز" وارتدائه ولو كان على شكل مانطو، وقد خفتت هذه الحساسيّة في الفترات الأخيرة.

البنطال: يمنع تمامًا ارتداء البنطال ضيقًا كان أم واسعًا، ولو كان تحت المانطو أو في البيت أمام المحارم الأب والإخوة، أو أمام البنات ولو كان في سكن للطّالبات، ويلحق به منع لبس البيجاما ولو كانت للنوم أمام أحد من المحارم أو النساء.

"**القمطة**": وهي قطعة القماش التي تجمع بها المرأة شعرها وتوضع عادة تحت الحجاب، فيجب ارتداؤها عند القبيسيّات ويمنع منعًا تامًا نزعها أمام الآخرين، سواء أمام المحارم في البيت، أو أمام النساء في جلساتهنّ الخاصّة أو سكن الطّالبات.

والأكمل عندهنّ هو عدم نزع الحجاب في البيت أو في مجالس النساء، فإن رغبت بنزع الحجاب فإنّها لا تنزع "القمطة" مطلقًا.

وفي بداية تطبيق هذه التعليمات ثارت ثائرة بعض الرّجال من وضع زوجاتهم "القمطة" في البيت، وحدثت مشكلات عديدة فأصدرت الآنسة "منيرة" تعليماتها بأنّه يستثنى من هذا القرار المتزوّجات، ثمّ ما لبث أن خفّ التشدّد في هذه النّقطة.

لباس المنزل: يمنع ارتداء البيجاما في المنزل أو سكن الطّالبات إلحاقًا بمنع البنطال، ويجب ارتداء "قميص النّوم" الطّويل.

كما يمنع ارتداء أيّة ثياب ذات أكمام قصيرة "نصف كم" ويجب ارتداء الأكمام الطّويلة في كلّ مكان.

هذه التّعليمات ساهمت بشكل واضح في تكوين طابع خاصّ ورسم صورة ذهنيّة عن الجماعة تتمايز بها عن غيرها.

وتكوين الهويّة البصريّة هذه يشكّل حالة تكامليّة مع الهويّة الفكريّة والشرعيّة بما يخدم بنية وهيكليّة الجماعة.

وهكذا يمكننا القول بأنَّ القبيسيّات لسن تنظيمًا بالمعنى المتعارف عليه للتّنظيم، ولسن حركةً أو تيّارًا، بل هنّ "جماعة دعويّة" متينة البنية، بسيطة الهيكليّة، حرصت على التّمايز عن غيرها في بنائها الهيكليّ وفي مظهرها العامّ لتحقق خصوصيّة هويّاتيّةً في إطار الهويّة الدّعويّة الجامعة.

ولكن هل القبيسيّات جماعة سريّة؟! وما قصّة الانتقال من البيوت إلى المساجد؟

بين دار الأرقم وجبل الصّفا

في دار الأرقم

"هناك في البيوت المتناثرة في أحياء المدن، كانت القبيسيّات يجتمعن بعد أن يصلنَ إليها بسريّة وهدوء.

يستحضرن نموذج "دار الأرقم" التي كان يلتقي فيها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأصحابه سرًّا في مكّة لتبليغهم الوحي وتعليمهم آي الكتاب المجيد.

وهذا الاستحضار كان يحقّق نتيجتين مهمّتين للجماعة؛ فقد كان عامل جذب لكثير من الفتيات اللّواتي كنّ يشعرن بأنَّ هذه اللقاءات التي تحدث بعيدًا عن أعين "الدّولة" تذكّرهنّ بالجيل الأوّل من الصحابة الكرام، فيرين أنفسهنّ على دربهم وطريقتهم.

كما أنه كان يشكّل سببًا قويًّا لتثبيت الطّالبات وتعزيز انتمائهنّ للجماعة، وهنّ يستشعرن عظيم المسؤوليّة الملقاة على عاتقهنّ في إحياء الدّين وتجديد الدّعوة إليه.

وكانت تُمارَسُ في الحلقات المنزليّة طقوسٌ تعزّز هذه "السريّة" في نفوس الطّالبات، منها منع التّصوير والتّسجيل، وكانت تُبرَّر الحساسية المفرطة من التّصوير والتّسجيل خشية أن تتسرّب فتلحق ضررًا بالجماعة.

وبعد انتشار الهواتف المحمولة غدا إدخال هذه الهواتف إلى غرفة اللقاء من المحظورات، فتوضع الهواتف خارج الغرفة في احترازٍ أمنيّ تمارسه عموم الجماعات والتّنظيمات السريّة في لقاءاتِها.

ويتكرّر التذكيرُ دومًا من الآنسات المشرفات بمفهوم أمانة المجلس وخطر إفشاء ما يجري ويدور في الحلقة من حوارات ونقاشات."

"القَطْعَة" إجراءٌ احترازيّ تفرضُه السّريَّة

و"القَطعَة" هو المصطلح الذي تستخدمه الجماعة للدّلالة على توقّف سيرِ الحلقات وإلغاء الدّروس.

وكان هذا الإيقاف يحدثُ عندَ وقوعِ حدثٍ أمنيّ أو سياسيّ يُخشى معه زيادة النّشاط الأمنيّ، وهو إجراءٌ احترازيٌّ كي لا تدخل الجماعة في دائرة الاستهداف المباشر أو الملاحقة.

فعلى سبيل المثال كانت تحدُثُ "القَطعة" كثيرًا في الثّمانينات من القرن الماضي إبّان المواجهة بين نظام "حافظ الأسد" و"الإخوان المسلمين"، وقد تستمرّ القَطعَة شهورًا وقد تتجاوز السّنة -كما حدث عند وفاة "حافظ الأسد" إذ استمرّ التوقّف عن الحلقات ما يزيد على سنة.

والمخوَّل باتّخاذ قرار "القَطعَة" هو الآنسة "منيرة" ومعها مجلس الآنسات الكبيرات فقط، ولا يحقّ لأيّة حلقةٍ في دمشق أو غيرها اتّخاذ قرار "القَطعَة"، وفي خارج سورية فالآنسة الكبيرة في تلكم الدولة هي صاحبة القرار.

ويتمّ إبلاغ قرار "القَطعَة" غالبًا بطريق المشافهة حيث تكلَّف إحدى الطّالبات بالمرور على بيوت طالبات الحلقة وإبلاغهنّ أنّ هناك "قَطعَة" دون إبداء الأسباب، ويمنع استخدام الهواتف الأرضيّة والمحمولة في التبليغ، ويترافق التّبليغ عن "القَطعَة"

مع طلب الدّعاء للجماعة بتفريج الكرب، وطلب الالتزام بورِدٍ من الاستغفار على نيّة التفريج.

هل هي "سريّة" حقًّا؟!

إنَّ الحديث عن "سريّة" القبيسيّات في ظلّ نظامٍ أمنيّ بامتياز كنظام الأسد هو من النّكات المضحكة، فعدا عن كون السّمت العام والهويّة البصريّة المعلنةِ والمعروفة للجميع فإنَّ هذا النّظام الأخطبوطيّ أمنيًّا لا يمكن أن يقبل بنموّ جماعةٍ أو نشاطها بعيدًا عن أنظاره.

وهنا لا بدّ من التّأكيد على أنَّ السّماح من النّظام السوريّ أو غيره لأيّة جماعة دعويّة بالنّشاط والعمل لا يعني بالضّرورة رضاه عنها أو تحكّمه في مفاصِلها، بل يمكن أن تكون هناك حسابات أخرى تدفع لهذا منها الموازنات الدّاخليّة بين الجماعات المختلفة، والموثوقيّة من عدم تشكيل خطر حقيقيّ على وجود النّظام.

وينبغي هنا ملاحظة أنّ دعم الجماعة من قِبل العلماء والدّعاة الذين يمثّلون موضع ثقة عند النّظام كان له دور بالغ الأثر في السّماح لهذه الجماعة بالعمل في المنازل بطريقةٍ "سريّة".

وهنا يمكننا التّأكيد على أنَّ هذه السريّة هي سريّة تعيشُها الطّالبات والآنسات في مخيلتهنّ وسلوكهنّ، كما أنّها سريّة تُمارَسُ على المجتمع المحيط، لكنّها لم تكن على

الإطلاق جماعةً سريّة على أجهزة النّظام المختلفة، فهي في مدى نظرِه وتحت رقابته الصّامتة.

ولذا فإنَّ وصف القبيسيّات بأنّهنّ "جماعة سريّة" هو وصف يجافي الحقيقة ويخالف الواقع والمنطق، والأدقّ وصفًا لهنَّ أنّهنّ "جماعة مغلقة" أي تمارس صورة السريّة بهدف تحقيق الانغلاق على الذّات بما يحفظ وجودها وكيانها لا بما يضمن سريّتها.

إلى مساجد دمشق

استمرّت الدّروس في المنازل حتّى عام ٢٠٠٥م، وبعد حراكٍ على مستوى مؤسسات النّظام قاده كلّ من د. "محمّد سعيد رمضان البوطي" لدى الأجهزة الأمنيّة ود. "محمّد حبش" في مجلس الشّعب الذي كان عضوًا فيه، يمكن القول بأنّ مرحلة الدّعوة العلنيّة قد بدأت فعلًا.

فقد أكّد د. "البوطي" أنّه وبرفقة عدد من العلماء أبلغوا الأجهزة الأمنيّة بأنّ هذه الجماعة عملها مستقيم ووطنيّ ليسَ فيه أيّة شائبة، وأكّدَ أنّهنّ لا علاقة لهنّ بالسياسة على الإطلاق، وهذا يقتضي منحهنّ موافقات للتدريس في المساجد والعمل في العلن وفي هذا أصلًا مصلحة النّظام نفسه قبل مصلحة الجماعة.

أمّا د. "محمّد حبش" فيقول في إحدى مقالاته الدّفاعيّة عن الجماعة: "وخلال خدمتي في مجلس الشّعب تبّنيتُ مبدأ إخراج القُبيسيّات من الغموض إلى العلانية،

وكان موقفي يستند إلى قناعتي بأنّ المجموعة هي في الواقع مجموعة تعليميّة ناجحة لا تمتلك أيّ برنامج سياسيّ، وأنّ ممارسة إرعابها ومحاصرتها قد يدفع كثيراً من أبناء الجماعة للتطرّف، وبالفعل فقد تمكّنت من الحصول على عددٍ من الرُّخص لشيخات قبيسيّات لممارسة العمل العلنيّ في المساجد في سوريا، وكان ذلك بداية خروجهن إلى العلانية منذ عام ٢٠٠٥"

الملفت في تصريحات الشّيخين "البوطي" و"حبش" أنّه يوحي بأنَّ الانتقال من المنازل إلى المساجد كان مطلب الجماعة، وهذا مخالفٌ للحقيقة التي تؤكّد بأنَّ الجماعة كانت ترغب بالبقاء في النّشاط المنزلي. غير أنَّ جهودًا بُذلت من المشايخ أنفسهم مع الآنسة "منيرة" والآنسات الكبيرات لإقناعهنّ بالانتقال إلى العمل العلنيّ في المساجد.

وقد كانت الآنسات يطمحن إلى الجمع بين العمل المسجديّ والحلقات المنزليّة، لكنّ تلك الرّغبة كانت بعيدة المنال، حيث ضعفت اللّقاءات والحلقات المنزليّة إلى حدٍّ كبير، غير أنّها لم تتوقّف على الإطلاق.

التزاماتٌ مسجديّة جديدة

وفعلًا شرعت القبيسيّات بالحلقات والدّروس المسجديّة في دمشق وغيرها من المحافظات السوريّة، بينما بقي النّشاط المنزليّ هو الأصل في بقيّة البلدان.

وهذا الانتقال إلى المساجد ترتّبت عليه تبعات جديدةٌ على الجماعة، أهمّها وأوّلها هو الدّعاء للرّئيس بشّار الأسد في نهاية كلّ درس باسمه الصّريح، وهذا أمرٌ مفروض على جميع الخطباء والمدرّسين في مساجد سوريّة، وعدم فعله يؤدّي إلى المنع من الخطابة أو التّدريس، وكانت القبيسيّات يفعلنه في نطاقات مختلفة، فكان يغيب في الحلقات الخاصة ويحضر في الحلقات المفتوحة.

كما ترتّب عليه الالتزام بتعميمات وتعليمات وزارة الأوقاف، وقد حُرمت من العمل المسجديّ بعض الآنسات اللّواتي ينتمي لأسرهنّ شخصيّات إخوانيّة، إذ كان ذلك سببًا في رفض منحهنّ الموافقة الأمنيّة اللازمة.

كما فَرضَ هذا الانتقال إلى المساجد جوًّا جديدًا من انفتاح الجماعة على شرائح جديدة من الطالبات تخالف الضّوابط الصّارمة التي وضعتها الجماعة في مرحلتها السّابقة، ممّا فرض عليها التّخفيف من شروط الالتحاق بالجماعة، والتخفّف من الضّوابط الموضوعة للسّلوك أو المظهر العام.

ولكن ما هي المرتكزات الفكريّة والدّعويّة والشّرعيّة التي تقوم عليها جماعة القبيسيّات؟ وما هي مناهج الحلقات؟

المرتكزات الفكريّة والتّربويّة والمناهج الشّرعيّة

"لا قيمة لجماعة أيّا كانت دون فكرةٍ تجتمع عليها، وتلتفّ حولها، وتعمل لها، وتضحّي في سبيلِها، ولا بدّ لهذه الفكرة أن تحمل في باطنها فرادة تتمايزُ بها عن الجماعات المتشابهة حتّى تكون لها شخصيّتها الفكريّة والتربويّة التي تميزها عن غيرها ولو كان بتفاصيل يسيرة وبسيطة، وهذا ما كان فعلًا عند القُبَيسيّات."

علامَ ارتكزت القُبيسيّات فكريًّا؟

ترتكزُ القبيسيّات في البنيان الفكريّ على الجمع بين المدرسة الصّوفيّة العلميّة التّقليديّة، والمدرسة الحركيّة.

والهدف من ذلكَ هو بناء تصوّرات الفتاة نحو الدّين والإيمان والكون والإنسان والحياة وعلاقة المسلم بذلك كلّه، بالاستناد إلى القرآن الكريم والسّنّة النبويّة، وتمتين العلاقة مع الجيل الأول من الصّحابة رضي الله تعالى عنهم.

فالمناهج التي تُقرِّرها الجماعة في حلقاتها تهدفُ إلى بناء الفتاة العارفة بمبادئ دينها وفق المنهج الوسط؛ وتمليكها مفاتيح العلوم الشرعيّة، وما تحتاجه من أساسيّات في حياتها الواقعيّة.

إضافة إلى الإطلالة على علوم الحياة الإنسانيّة غير الشرعيّة من جغرافيا وتاريخ وأدب وثقافة عامّة.

وهذه المناهج التي تقرّرها الآنسة "منيرة" ومجلس الآنسات الكبيرات في عموم الحلقات تجمع بين حفظ القرآن الكريم وتجويده وعلوم الفقه والحديث والعقيدة والتّفسير والسيرة وتراجم الصّحابة والتاريخ والجغرافيا والثّقافة الإسلاميّة وبعض كتب الأدب.

وقد كانت الكتب في بداية الأمر يتمّ اختيارها من الكتب الموجودة المتوفّرة، وهي تختلف في بعض تفصيلاتها الصغيرة من بلدٍ لآخر، بناءً على توافر الكتب والسّماح بها في بلدٍ وعدم توافرها أو منعها في بلدٍ آخر.

ثمّ انتهجت الجماعة فكرة التّأليف الذّاتي، بحيث تكون المناهج من تأليف آنسات الجماعة في كثيرٍ منها في الأوقات اللّاحقة.

ومن الطبيعيّ أن يكونَ القرآن الكريم حفظًا وتجويدًا هو المحور الأبرز في مناهج الجماعة، فقد كان هذا من أكثر ما تشدّد عليه القبيسيّات، وكنّ يحرصن على توجيه الشّابات والآنسات إلى الالتزام في حلقات الشّيخ "أبو الحسن الكردي" وهو من كبار قرّاء الشّام ومن "جماعة زيد"، لنيل الإجازة منه، ومن ثمّ تشكيل مجموعات كبيرة من الحافظات المجازات القادرات على منح الإجازة.

وفي الفقه كان الكتاب المعتمد "فقه العبادات" للحاجّة "دريّة العيطة" رحمها الله وكانت من آنسات الجماعة.

وفي التّفسير فالكتاب المعتمد هو "مختصر تفسير ابن كثير" لـ"الصّابوني".

وفي الحديث كان "منهج النقد في علوم الحديث" للدكتور "نور الدّين عتر" هو الكتاب المعتمد.

أمّا العقيدة فكانت الكتب في البداية "كبرى اليقينيات الكونيّة" للدكتور "محمد سعيد رمضان البوطي" و"العقيدة الإسلاميّة" للدكتور "مصطفى الخنّ" و"أسس

العقيدة الإسلاميّة" لـ"عبد الرّحمن حبنّكة"، إلى أن ألّفت الآنسة "سعاد ميبر" وهي من آنسات الجماعة كتابها في العقيدة الإسلاميّة بعنوان "عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة" ليغدو هو الكتاب المعتمد.

أمّا السّيرة فقد اعتُمدت عدّة كتب منها "فقه السّيرة" لـ"البوطي" و"دراسة في السيرة" لـ"عماد الدّين خليل" إلى أن ألّفت الآنسة "سميرة الزّايد" –وهي من أشهر آنسات الجماعة– كتابيها "الجامع في السيرة النبوية" ومختصره "مختصر الجامع" فصارا هما الكتابين المعتمدين في السّيرة.

أمّا كُتب التّراجم فهي "رجال حول الرّسول" لـ"خالد محمّد خالد"، و"رجال الفكر والدعوة" لـ"أبو الحسن الندوي"، و"نجوم في فلك النبوّة" لـ"أسماء طبّاع".

ومن الكتب التي كانت معتمدة في الجماعة كتاب "الرّسول القائد" لـ"محمود شيت خطاب"، و"ربّانية لا رهبانيّة" لـ"أبو الأعلى المودودي"، وبعض روايات "نجيب الكيلاني"، ومجموعة كتب وكراسات في التاريخ للدكتور "شوقي أبو خليل"، وبعضها من تجميع بعض الآنسات.

وفي بعض الدّول خارج سوريا كان يتمّ توجيه الطالبات إلى بعض كتب "سيّد قطب" و"محمّد الغزالي" و"يوسف القرضاويّ".

وكانت تقام امتحانات في هذه الكتب بعد الانتهاء منها، وكان النّجاح في هذه الامتحانات أحد معايير قبول الانتقال من مستوىً إلى آخر فوقه داخل الجماعة.

ومن خلال التّمعّن في الكتب والمنهجيّة التي يتمّ اختيارُها بها نرى جليًّا تعدّد المشارب بين الصّوفيّة العلميّة والحركيّة الإخوانيّة، وهذا المزج كان له دورٌ كبير في تشكيل الوعي وبناء الفكر، كما أنّه أشعر المنتسبات أنّهن يحصلن على جرعات فكريّة لا يحصلن عليها بهذا الشكل في أيّ محضن آخر، فكان هذا التنوّع عامل جذبٍ إضافيّ.

وماذا عن البناء التّربوي؟

أمّا البناء التربوي فيهدف إلى بناء المسلمة المتديّنة تديُّنًا متينًا الملتزمة بمبادئ الإسلام وشعائره التزامًا ظاهرًا وباطنًا.

فلذلك كان التّركيز على أداء الشّعائر لا سيما صلاة الفجر من القضايا الأساسيّة، إضافة إلى تقديم خطاب توكيديٍّ على وجود برنامجٍ مستمرٍّ للتهجّد وقيام الليل.

وكان هناك اهتمام كبير بالأوراد والذّكر، وبعض الأوراد كانت تقام لها طقوس احتفاليّة خاصّة تحت عنوان "تسليم الوِرد" وفيه تقوم الآنسة بتكليف الطالبات بالوِرد، وتتابعها في تطبيقه وتنفيذه.

وعند النّظر في الأوراد التي تعتمدها الجماعة فإننا نجد بأنّها أيضًا تقوم على مزج بين الصّوفيّة الطرقيّة والصّوفيّة العلميّة وجماعة الإخوان.

فمن أهمّ الأوراد التي تقرّرها الجماعة في حلقاتها "دعاء الرّابطة" الذي اعتمده الأستاذ "حسن البنّا" في مأثوراته التي ينفّذها الإخوان المسلمون يوميًّا، وصيغته:

"اللهمّ إنّك تعلمُ أنّ هذه القلوب قد اجتمعت على محبّتك، والتقت على طاعتك، وتوحّدت على دعوتك، وتعاهَدت على نصرة شريعتك؛ فوثّق اللّهمّ رابطتَها وأدِم ودّها واهدها سبلها، واملأها بنورك الذي لا يخبو، واشرح صدورَها بفَيض الإيمان بك، وجميل التوكّل عليك، وأحيِها بمعرفتك، وأمِتها على الشّهادة في سبيلك، إنّك نعم المولى ونعم النّصير"

وكذلك "الصّلاة الناريّة" وهي صيغة بالصّلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اعتمدها الشّيخ "عبد الكريم الرّفاعي" حتّى صارت علمًا على جماعة "زيد"، وهي:

"اللهم صلِّ صلاةً كاملةً، وسلّم سلامًا تامًّا على سيّدنا محمّد، الذي تنحلُّ به العقد وتنفرجُ به الكرب، وتُقضى به الحوائجُ، وتُنالُ به الرغائب وحسن الخواتيم، ويُستسقى الغمام بوجهه الكريم، وعلى آله وصحبه وسلّم"

وكذلك "ورد الرّابطة" الذي تختصّ به الطّريقة النّقشبنديّة وهو ذكر الله تعالى بالاسم المفرد مع إغماض العينين واستحضار صورة الشّيخ.

وتُقام لهذا الورد جلسة ذكرٍ احتفاليّةً بتسليمه كما في الطّريقة النّقشبنبديّة بعد تجاوز الطالبة المستويين الأول والثّاني وتقوم الآنسة بتسليم الورِد.

غير أنَّ انتقادات كبيرة بدأت تخرج من الطّالبات في الفترة الأخيرة حول هذا الوِرد لما ينطوي عليه من إشكالات، ممّا دعا الجماعة إلى التّخفّف منه وعدم الإلزام به في الفترات الأخيرة.

ممّا يجدر التّأكيد عليه بعد الحديث عن هذه المرتكزات والمناهج هو أنَّ البناء الفكريّ والتربوي كلاهما منوطٌ في الحقيقة بتنفيذ الآنسة المشرفة على الحلقة والتي ترتبط بها الطّالبة ارتباطًا وثيقًا.

ولذا يغدو الحديث عن المناهج وحدها غير منطقيّ دون الولوج إلى تفاصيل العلاقة بين الآنسة والطالبة، وماهيّة هذه العلاقة وطبيعتها، فالآنسات في جماعة القبيسيّات لهنّ الدّور الأكبر في تشكيل الطّالبات النّفسي والفكري.

فما هي طبيعة العلاقة بين الآنسات والطالبات في جماعة القبيسيّات، وما أثر ذلك على تكوين الشّابّات؟

ماذا عن العلاقة بين الآنسة والطّالبة ؟!

في عموم الجماعات الدّعويّة تبقى الرّابطة الاوثق هي الرّابطة بين الشّيخ والمريد والمربّي والطّالب والقبيسيّات لسن بدعًا من ذلك فالعلاقة بين الآنسة والطّالبة هي التي تصوغ سلوك الفتاة وتشكّل وعيها وترسم بنيانها النفسي، وتحدّد طبيعة المُخرجات التي تنتجها الجماعة سلوكيًّا وفكريًّا وتربويًّا، وقد اتّسمت هذه العلاقة بسماتٍ عديدة من اهمّها.

طهرانيّة الآنسة

من أهم ما تتسّم به لقاءات الآنسة بالطّالبات هو ترسيخ مبدأ طهرانيّة الآنسة؛ فهي من "أهل الله" ومن "أولياء الله" بخلاف الطّالبات اللّواتي عليهنّ اتّهام انفسهنّ وتحميلهنّ مسؤوليّة أيّ ارتكاسٍ يقع في الحلقة أو في الجماعة.

فمن المشاهد المتكرّرة أن تأتي الآنسة فتكون نفسيّتها متعبة أصلًا وتشعر بضيق، أو يرتج عليها فلا تستطيع إعطاء الدّرس أو تنسى معلومة، فيكون التفسير دومًا باتّهام الطّالبات بأنَّ الله تعالى حرمكنّ بسبب معصيتكنّ أو بسبب وجود إحدى العاصيات بينكنّ، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال تحميل الآنسة مسؤوليّة أيّ شيءٍ من هذا.

وقد غدا هذا الأمر ظاهرة عامّة في الحلقات ممّا دعا د. "محمّد سعيد رمضان البوطي" –رغم محبّته للقبيسيّات ودفاعه المستميت عنهنّ– إلى انتقاد هذه الظّاهرة أكثر من مرّة في دروسه.

وأذكرُ جيّدًا أنني سمعته يقول في دروسه: "إنّ هناك آنسات في أثناء الدّرس إن نسيت إحداهنّ أو أرتج عليها تقول لطالباتها إنَّ الله تعالى قد حرمكنّ بسبب معاصيكنّ، وإن فتح الله عليها نسبت الفضل في ذلك إلى إخلاصها، وهذا داءٌ خطيرٌ والأصل هو خلاف ذلك".

ثمّ يقسم قائلًا: "والله إنني أجلس أتحدّث إليكم فيفتح الله عليّ بأفكار لم أكن أخطط لقولها هي أفضل ممّا كنت قد حضّرتُه وجهّزته، فأقول لنفسي: إنّ هذا بسبب إخلاص السّامعين الذين ساق الله لهم هذا الرّزق على لساني، وأحيانًا أكون قد جهّزت في نفسي فكرة فتطير من رأسي وأنسى ما أريد قوله فأقول لنفسي: إنَّ هذا بسبب معصيتي وتقصيري".

ولم يكتفِ الدكتور "البوطي" بانتقاد هذا السلوك القبيسي في دروسه، بل ضمّنه في كتابه "الحبّ في القرآن الكريم".

فيقول في سياق حديثه عن مخاطر بعض السلوكيّات بين المعلّم والمريد:

"تدخلُ إحداهنَّ في الموعد المحدّد للقاء مريداتها أو تلميذاتها كي يتلقينَ منها الموعظة أو الدرس الذي هنّ منه على ميعاد، وتنظر الفتيات في وجه الشيخة المرشدة، وإذا بالسّخط يتبدّى على قسائم وجهها، وتمضي الشيخة تجترّ سَخَطها لبضع دقائق في صمت، ثم إنها تفاجئ الفتيات بما لم يكن متوقعاً، تنظر إليهنّ قائلة: إن هناك معصيةً أو معاصي تلوح لها، ظلالها قاتمة تهيمن على المكان، وإنَّ صدرها منقبض لذلك، من ثمّ فهي لا تستطيع البقاء معهنّ في هذا الجوّ، وما هو إلا أن تقوم وتدير ظهرها إليهنّ ذاهبة!

أما الفتيات، فلا تسل عن الذعر الذي يجتاح مشاعرهنّ، لاسيّما أن المرشدة قد سبق وغرست في أفئدتهنّ الثقة التامة بها، وبأنها إنما تتلقى مشاعرها إلهاماً من عند

الله، فتستغرق كل واحدة منهنّ في التفكير بالمعصية التي اجترحتها، وتستعين بالذاكرة والخيال لمعرفة هذا الذي تجهله من أمر نفسها، في حين أن المرشدة كشفته وعلِمته، لعلّها متابعة المسلسل الذي شهدت مع أهلها بالأمس، ولعلها ذلك الحديث العابر الذي أُلجئت إليه مع ذلك الشاب في محلٍّ تجاريّ بالسوق، ام لعلها تصفّح تلك المجلّة الماجنة التي استهوتها لبضع دقائق.

وتتحوّل التخيلات التي تفرضها المسكينة على نفسها في كثير من الأحيان إلى قلقٍ نفسيّ، ثمّ إلى اضطرابٍ فمرضٍ نفسيٍّ خطير".

لكنّ منهج عموم الآنسات القبيسيّات بقي هو التركيز على أنّ أيّ خلل يقع منهنّ في الإعطاء هو حرمان من الله تعالى للطّالبات وعقوبة لهنّ على تقصيرهنّ ومعاصيهنّ، فعلى حسب "ملائكة الحاضرات" يكون "التّجلّي والإلهام"، كما كان يتمّ التّعبير عن ذلك.

هذا المنطق رسّخ في نفوس الطّالبات حالة من الطّهرانيّة للآنسة مع الشّعور الخفيّ بالدّونيّة التي تقتضي تحميل أنفسهنّ أخطاء غيرهنّ.

مبالغةٌ في التّبجيل والتّقديس

"أهل الله" هذا المصطلح يطلق عادة على الآنسات في إطار التّزكية والتّبجيل، وإنّ هذه التّزكية ومعها ترسيخ مبدأ الطّهرانية، إضافة إلى قدرة الآنسات المشرفات على الإبهار والتّأثير؛ يؤدّي إلى التّعلّق القلبيّ بالآنسة تعلُّقًا يثمر التّبجيل الذي يصل حدّ التّقديس في بعض الحالات.

ولا بدّ من التّأكيد بأنّ هذا يختلف من بيئةٍ إلى بيئة؛ فبيئة الخليج عمومًا ليست من بيئات التّبجيل المبالغ فيه كما هو في بيئة الشّام، كما يختلف من آنسة إلى أنسة على حسب الاستعداد النّفسي للآنسة.

عموم آنسات القبيسيّات كنّ يرفضنَ أن تقبّل الطالبات أيديهنّ أو يحملنَ أحذيتهنّ أو يمارسن معهنّ طقوس التّبجيل، لكنّهنّ بالمقابل لم يكنّ ينكرنَ ذلك، وهذا امتدادٌ لحالة التبجيل المبالغ فيه عند الطرق الصّوفيّة.

ومن مفرزات هذا التّبجيل شعور الطّالبة بأنّ علاقتها مع الآنسة أمتن من علاقتها مع الشّرع نفسه، واعتقادها بأنّ الآنسة هي بوابتها الحصريّة للوصول إلى الله تعالى، كما وصل الأمر إلى حالات حبٍّ مَرَضيّ وتعلُّقٍ غير سليم من بعض الطالبات كان يُعبَّرُ عنه بغيرةٍ شوهاء وتنافسٍ طفوليّ لكسب قلب الآنسة.

وممّا ترتّب على حالة التّبجيل هذه غيابٌ لأجواء الحوار الجدليّ والنقاش الاعتراضي مع الآنسات في الحلقات، وكان يشار بالبنان إلى الفتاة كثيرة الاعتراض أو الانتقاد، ويتمّ التعامل معها بجفاء جليّ لتجد نفسها خارج إطار الجماعة شيئًا فشيئًا.

كما ترتّب على هذا التّبجيل محاولة الكثير من الطّالبات الاقتداء التّام بالآنسات الكبيرات، وقد تسبّب هذا ببعض الظواهر التي ألصقت بالجماعة، ومن ذلك فكرة العزوف عن الزّواج.

ففي الحقيقة ليست هناك توجيهات من القبيسيّات للفتيات بالعزوف عن الزّواج، ولكنّ حالة التبجيل المبالغ فيه للآنسات -اللّواتي كانت الكثيرات منهنّ غير متزوّجات رغبةً منهنّ عند البعض ولعدم توافر فرصة الزّواج للبعض الآخر- جعل عددًا من الطّالبات يستشعرن بأنَّ هذا من الفضائل التي ينبغي تقليد الآنسة فيها، فلو كان الزّواج خيرًا ليسّره الله تعالى للآنسة التي هي من "أهل الله".

القسوة منهجًا

من الطّبيعيّ أن تكون طبائع الناس في الرّقة والغلطة، واللّطف والشّدّة، واللّين والفظاظة مختلفة، لكنّ ما اصطبغت به سلوكيّات الكثير من الآنسات مع طالباتهنّ القبيسيّات هو الشّدّة والقسوة في السّلوك، وذلك من باب الحرص على سلوك الطّالبات وظنًّا منهنّ أنّ هذا السّلوك سيحفظ على البنات التزامهنّ وابتعادهنّ عن الميوعة والانحلال.

وهذه القسوة كانت تظهر في أوجها عند بلوغ أيّة معلومة أو وشاية على طالبة من الطّالبات في المجال السّلوكي كالعلاقة بينن الجنسين على سبيل المثال- التي تعدّها الجماعة من المحظورات التي لا يمكن التّهاون فيها.

هذه القسوة كانت تظهر على شكل شدّة في الكلام ومبالغة في التّوبيخ وتوصيفات جارحة، كأن يقال للفتاة بأنّ نور الإيمان غادر وجهها وقد يصل الأمر إلى الهجر والقطيعة.

وهذه القسوة انعكست على سلوك الطالبات بحيث غدت العديدات منهنّ يمارسن السّلوك الجاف في حياتهنّ الاجتماعيّة خشية التعرض لقسوة الآنسة من جهة ولتشربّهنّ القسوة بالمحاكاة.

كما تسبّبت هذه القسوة بردّات فعل العديد من المنتسبات للجماعة لا سيما من كنّ في المستويات الأولى فهجرن الجماعة وربما عادينها بسبب ما تعرّضن له من قسوة في التعامل وشدّة في السّلوك.

لا خصوصيّات على الآنسة

كونها المشرفة والمربيّة والأقرب إلى الله تعالى ومحل الثّقة المطلقة؛ غدت "الآنسة" مستودع أسرار طالباتها، وغدت المستشارة المطلعة على أدقّ خصوصياتهن الأسرية والزّوجيّة.

ولم تكن هناك تعليمات صريحة، غير أنَّ الجوّ العام غدا يُشعر الطالبة بأنّها لا يجوز أن تخفي شيئًا من خصوصيّاتها عن الآنسة، ويجب استشارتها في أخصّ الخصوصيّات.

وهذا أتاح للآنسات الهيمنة النّفسيّة على الطّالبات؛ ممّا أتاح لهنّ التّحكّم في كثيرٍ من الأحيان بقرارات طالباتهنّ المصيريّة المتعلّقة بالدّراسة أو بالزّواج أو العمل أو غير ذلك.

وكان يصل الامر في هذه الهيمنة أن يكون قول الآنسة مقدَّمًا عند الفتاة على قول أمّها وأختها وأسرتها، فالآنسة هي الأقرب ورضاها هو امارةٌ على رضا الله تعالى وسخطها دلالةٌ على الطّرد عن باب الله عزّوجل.

إنّ هـذه السّـمات في العلاقـة بـين الآنسـات والطّالبـات عنـد القبيسـيّات جعلـت الطّاعة للآنسات تكاد تكون طاعةً مطلقة، وفي كثيرٍ من الأحيان لم تكن طاعةً مبصرة، كما جعلت قدرتهنّ على توجيه الطالبات إلى مساحات معيّنة من الرّأي والتوجّهات عاليّة.

ولكن كيف هو حالهنّ في عالم السّياسة، وكيف كانت علاقة القبيسيّات بالنّظام السّوري في عهد حافظ الأسد؟!

القُبيسيّات وَعَهد "حافظ الأسد"

"لا يمكن فهم التحولات التي تجري في عموم الجماعات الدعويّة والتيارات الفكريّة في سورية دون العودة إلى حقبة حكم "حافظ الأسد"، التي تُعدُّ الحقبة التي صاغت شكل سورية على ما هي عليه اليوم."

نعوذُ بالله من الشّيطان والسّياسة

ومن المهمّ أن نلحظ أنَّ انطلاق النّشاط القبيسيّ كانَ في ستّينات القرن الماضي أي في ظلّ هيمنة حزب البعث على السّلطة؛ هذه الهيمنة التي كانت جسرًا لوصول حافظ الأسد إلى سدّة الحكم.

وهذا يفيدُنا بأنّ انطلاقة عمل الجماعة -في ظلّ حكم البعث وفي فترة كان التّصارع السّياسيّ في سورية في أجلى صوره وأشدّ حالاته- قد ألقت بظلالها على توجّهات الجماعة التي اتّخذت موقفًا مبدئيًّا يتمثّلُ في تجنّب السّياسة والعمل بها أو تعاطيها أو مجرّد التّحدُّث بشؤونها وقضاياها في الحلقات.

فكان الحديثُ في السياسة محظورًا لا يجوز الاقتراب منه أو التّلميح إليه ولو في الدّعاء، منتهجين في ذلك عبارة الشّيخ بديع الزّمان النّورسي الشّهيرة "أعوذ بالله من الشّيطان والسّياسة" على اختلافٍ كبيرٍ بينهم وبين النّورسيّ في التّعامل مع السّياسة والسّياسيين.

بل أكثر من ذلك، فقد حرصت القُبيسيّات على الدّوام على تصدير فكرةِ رفض الاقتراب من السّياسة والتّصريح بها للطّالبات وأهليهنّ، وبالطّبع ستصل إلى أجهزة النّظام، التي لم تكن غافلةً عن هذا النّشاط النّسائيّ الذي يتمدّد بهدوء.

غضّ الطّرف الأمنيّ

تعاملت أجهزة النّظام السّوري لا سيما الأمنيّة منها بمبدأ غضّ الطّرف مع القُبيسيّات، رغم أنّ هذه الأجهزة ذاتها كانت تشنّ حربًا عسكريّة وأمنيّة وإعلاميّة على جماعة "الإخوان المسلمين" بكلّ مكوّناتها بما فيها أذرعها الدّعويّة والاجتماعيّة.

ويعودُ غضّ الطّرف هذا إلى اقتناع أجهزة الأمن في نظام "حافظ الأسد" بوجود بونٍ شّاسعٍ بين القبيبسيّات وجماعة الإخوان، وبينهنّ وبينَ العمل السّياسي، إضافة إلى سياسة النّظام في تلك الفترة التي كانت تقوم على محاولة عزل جماعة الإخوان عن الواقع الاجتماعي والدّعوي وتصدير وترسيخ فكرة أنَّ مشكلة النّظام هي مع الإخوان ومن انخرط معهم في المواجهة لا مع الإسلام، فلذا كان لا يتمّ التّعرّض لعموم الجماعات الدّعويّة النّاشطة في دمشق وفي المدن الكبرى كحلب وحمص، وتمّ التّعامل مع القبيسيّات بالمنطق ذاته.

وغضّ الطّرف هذا لا يتناقضُ مع الاستدعاءات الأمنيّة الدّوريّة لبعض الآنسات والمشرفات، وهذه الاستدعاءات كانت تشمل عموم الخطباء والأئمة والدّعاة، وهي تهدف إلى إعطاء رسائل واضحة بأنَّ النّظام غير غافلٍ عمّا يدور حوله وأنَّ حربه على الإخوان لم تشغله عن غيرهم، إضافة إلى ضبط حركة هذه الجماعات المختلفة بما لا يخرجها مع الزّمن عن السّيطرة والتّحكّم.

إجراءات احترازيّة

بعد مجزرة حماة وما بات يُعرَف بأحداث الثّمانينات، دخلت الحالة الدّعويّة وعموم العمل الإسلامي في سورية في نفق مظلم.

رغم هذا المشهد القاتم الذي عاشته سورية في ثمانينات القرن الماضي لم تتوقّف القبيسيّات عن العمل الدّعوي ولم تنتهِ الحلقات؛ غير أنَّ الجماعة في مساعيها للحفاظ على وجودها وبقاء كيانها كانت تسلك العديد من الإجراءات الاحترازيّة من أهمّها:

أولًا: "القَطعَة"؛ حيث كثرت القَطعات وهي كما ذكرنا من قبل إيقاف للعمل والنّشاط القبيسيّ احترازيًّا، فكان كلّما وقعت مجزرة أو تفجير أو عمليّة اغتيال تقطع الجماعة دروسها وتوقف نشاطها بشكل كليّ خشية التّعرض لأيّة ملاحقة أو تضييق إضافيّ.

ثانيًا: التّخفيف من الحركة والنّشاط، حيث عمدت الجماعة في تلك الفترة إلى تقليل النّشاط بشكلٍ كبير حتّى خارج أوقات "القَطعة" بحيث تتباعد مواعيد اللّقاءات وتقليل عدد أعضاء الحلقة، وقد كان لموقف الأهل الخائفين على بناتهم أثر كبيرٌ في قلّة النّشاط وعدد الطّالبات في تلك الفترة الحرجة.

ثالثًا: استثمار وقت التوقّف عن النّشاط والحلقات في التّأليف والكتابة وإعداد المناهج، حيث كانت التّوجيهات للآنسات بضرورة استثمار عدم الانشغال بإعداد مناهج خاصّة بالجماعة من تأليف آنساتها.

المعركة مع مدير أوقاف دمشق الشّيخ "عبدالله دكّ الباب"

الشّيخ الدكتور "عبدالله دكّ الباب" هو مدير "معهد بدر الدّين الحسني للعلوم الشّرعيّة" في دمشق، وكان يُعرف باسم معهد "الأمينيّة"، تولّى في منتصف تسعينات القرن الماضي منصب مدير أوقاف دمشق.

وقد كانت هذه الفترة هي أواخر حياة "حافظ الأسد الذي مات عام ٢٠٠٠م، ويمكن القول بأنَّ هذه السّنوات شهدت الحدث الأبرز للقبيسيّات في علاقتهنّ مع نظام "حافظ الأسد".

حيث بدأت معركة حامية الوطيس بين الشّيخ "عبدالله دكّ الباب" وبين القبيسيّات كان عنوانها الظّاهر هو قضايا مالية متعلّقة بأوقاف تابعةٍ لجمعيّة بدر الدّين الحسني وللقبيسيّات علاقة مباشرة بها، وهي أوقاف تُقدّر بمئات الملايين من الدّولارات.

وفي تقديري أنَّ النّظام لم يكن هو الذي دفع "دكّ الباب" إلى إشعال هذه المعركة مع القبيسيّات، لكنّه كان راضيًا عنها سعيدًا بها ومستفيدًا منها الفائدة الأكبر.

ويمكن القول إنَّ هذه المعركة كانت بداية التّحوّل في منهجيّة تعامل النّظام مع القبيسيّات، وكانت هي السّبب الرّئيس في خروجهنّ من البيوت إلى المساجد، وقد كان الشّيخ "عبدالله دكّ الباب" يكرّر قسمًا بأنّه: "سيخرجهنّ من جحورهنّ واحدةً واحدة".

احتدمت المعركة التي كانت نيرانها تقوم على الاتّهامات المتبادلة بالفساد الماليّ، فكان الشّيخ "عبدالله دكّ الباب" يبرّر معركته عليهنّ بحرصه على تطهير الأوقاف من الفساد المالي الذي تحاول القبيسيّات فرضه على واقع الأوقاف التّابعة لجمعيّة بدر الدين الحسني، وبالمقابل فإنَّ القبيسيّات لم يألين جهدًا في توجيه الاتّهامات بالفساد المالي والفكري والسّلوكيّ للشّيخ "عبدالله دكّ الباب".

استمرّت هذه المعركة إلى ما بعد عهد "حافظ الأسد"، لتكون نتيجتها الظّاهرة انتصار القبيسيّات حيث اعتقلَ الشّيخ "عبدالله دكّ الباب" وحكم عليه بالسّجن سبع سنين وأودع سجن عدرا المركزي.

غير أنَّ الحقيقة والواقع يثبت أنَّ المنتصر في هذه المعركة كان النّظام وحده، حيث أودع "دك الباب" السّجن وكانت نهاية المعركة بداية مرحلة جديدةٍ في عهد القبيسيّات وعلاقتهنّ مع نظام "بشّار الأسد".

وفي السّجن ألّف "عبدالله دكّ الباب" كتابًا يقع في أكثر من أربعمئة صفحة عنوانه "ازدواجيّة المعايير؛ داءٌ عند بعض الدّعاة والدّاعيات في هذا العصر"

والكتاب محاولةٌ من دكّ الباب لإثبات براءته ممّا اتّهم به وسجن بسببه، وهجوم على القبيسيّات والدّعاة الذين ساندوا الجماعة ووقفوا معها.

واللّافت أنّ الكتابَ أُلِّف وطبع إبّان وجود "دكّ الباب" في السّجن، ومن يعلم واقع سوريا يعلم أنَّ هذا من المستحيل أن يتمّ في ظلّ نظام الأسد، وأنّه ما كان ليكون لولا رضا وإرادة الأجهزة الأمنية التي بقيت تستثمر الأطراف المتنازعين في هذه المعركة حتّى الرّمق الأخير.

في عام ٢٠٠٠م مات "حافظ الأسد"، وأعلنت القبيسيّات مع موته إيقاف كلّ الحلقات والأنشطة والبرامج الدّعوية لفترة كانت هي الأطول في تاريخ الجماعة حيث امتدّت "القَطعَة" هذه المرّة لأكثر من سنة، لتعود من جديد مع عهد الأسد الابن وتحولات حقيقيّة طالت منهجيّة التّعامل مع الجماعة.

ولكن كيف تعاملَ نظام "بشّار الأسد" مع القُبيسيّات قبل الثّورة السّوريّة؟!

القُبيسيّات ونظام بشّار الأسد إلى ما قبل الثّورة

"إجماع" بهذه الكلمة تمّ تعديل الدّستور في مجلس الشّعب في يوم إعلان موت حافظ الأسد، ليغدو الشّابّ بشّار الأسد وريث الحكم في هذا النّظام "الجمهوريّ".

الاستبشار بربيعٍ لم يُزهر

كغالبيّة أطياف الشّعب ونخبه، استبشرت القُبيسّات خيرًا بشعارات التّحديث والتّطوير التي رفعها "بشّار الأسد".

وبعد "القَطعَة" الأطول التي دام توقّف النّشاط بها ما يزيد عن سنة استأنفت الجماعة نشاطها، وغرق الكثيرون من الإسلاميين وغيرهم في الحلم، وقبلَ أن يرى القوم أزهار "ربيع دمشق" استيقظوا من الحلم على أصوات مكابح دوريّات الأمن والضّرب بأعقاب البنادق على أبواب البيوت ليُقتاد كلّ الذين تمادَوا في الحلم إلى المعتقلات وليغدو "ربيع دمشق" سرابًا بقيعةٍ يحسبه الظمآنُ حريّة.

لكنّ اللّافت أنَّ نظام "بشّار الأسد" بدأ بعدَ أقلّ من سنةٍ واحدةٍ من استلامه الحكم يكشفُ عن توجّه جديدٍ مختلفٍ عمّا حاول الأسد الأب ترسيخَه وإقناع النّاس بأنَّ مشكلته ليست مع الدّعوة الإسلاميّة بل مع من كان يسمّيها "عصابة الإخوان المسلمين العميلة"ن ليكتشفَ النّاس شيئًا فشيئًا أنّهم أمام مرحلة جديدة لن تكون سهلةً على عموم العمل الدّعوي، وبدأت القبيسيّات يتحفّزن للمرحلة القادمة غير أنّهنّ لم يكنّ يتوقّعن أن يكنّ عنوان المرحلة؛ مرحلة المواجهة النّاعمة للعمل الدّعوي التّقليديّ.

القُبيسيّات في "بقعة ضوء"

كانت الدّراما هي وسيلة النّظام لإخراج القبيسيّات من غرفهنّ المغلقة ليصبحنَ حديث الشّارع.

ومن نافلة القول: إنّ الدّراما في الدول المحكومة من أجهزة الاستخبارات والخاضعة للقمع والاستبداد تعبّرُ بالضّرورة عن توجّهات هذه الأجهزة وتقدّم للنّاس رؤية النّظام للقضايا المطروحة مهما كانت.

وفي عام ٢٠٠٢م أدخل إعلام النّظام القُبيسيّات إلى كلّ بيتٍ عبر حلقة من المسلسل السّاخر ذائع الصّيت حينها "بقعة ضوء".

وتمَّ طرح صورة الجماعة في هذه الحلقة بطريقةٍ ساخرةٍ والتّركيز على فكرتين أساسيتين هما: استهدافُ القُبَيسيّات للطّبقة الثّريّة وخداع هذه الطّبقة باستمالتها للتّديّن، والفكرة الأخطر كانت تصوير الآنسات في الجماعة على أنّهنّ يوظّفن الديّن لأجل مصالحهنّ الشّخصيّة، واستثمار الدّعوة لأجل نهب الأموال والإثراء الشّخصيّ عبر استغلال الدّين.

القُبيسيّات وجهُ "عصيّ الدّمع"

وفي شهر رمضان عام ٢٠٠٥م أي في الفترة التي انتقلت فيها الجماعة من البيوت إلى المساجد؛ عُرض المسلسل الثّاني الذي يتطرّق للقبيسيّات وهو مسلسل "عصيّ الدّمع" الذي ألّفته "دلع الرّحبي" وأخرجه زوجها "حاتم علي"، وهو مسلسل يقدّم القبيسيّات بوصفهنَّ شريحةً لا يمكن تجاهلُها في المجتمع.

والفكرة التي يركّز المسلسل عليها فيما يتعلّق بالقبيسيّات هي انغلاق الجماعة وتطرّفها ورفضها للآخر، حيث تقوم الممثّلة "ثناء دبسي" بأداء دور الآنسة القبيسيّة التي تتحلّق حولها طالباتها وهي تعظهنّ في الأخلاق وتركّز على أهميّة الحجاب؛ ليصدمها ابنها الذي يؤدّي دوره المخرج "حاتم علي" بقراره الزّواج من فتاة غير محجّبة؛ لتدخل معه أمّه في مواجهةٍ عظيمةٍ وجدلٍ كبيرٍ يجسّد فكرة التّعصّب ورفض الآخر التي يريد المسلسل إيصالها عن القُبيسيّات.

ومن اللّوحات التي تعزّز هذه الرّسالة في المسلسل مشاهد طالبة هذه الآنسة التي تؤدّي دورها الممثّلة "صباح جزائري" وهي طبيبةٌ كلّ همّها الحفاظ على ابنها المراهق لكن بعقليّة منغلقة وقمعيّة أدّت إلى نفور عموم الأسرة منها وزواج زوجها سرًّا.

مسلسل "المارقون" والقبيسيّات في برزخه

وفي شهر رمضان عام ٢٠٠٦م عُرض مسلسل "المارقون" الذي أخرجه "نجدة أنزور" في عشر ثلاثيّات، وكلّ ثلاثيّة لها عنوانٌ مستقلّ وتتناول قضيّة خاصّة، كان نصيب القبيسيّات منها ثلاثيّةٌ بعنوان "البرزخ".

ومن المهمّ التأكيد على أنَّ "نجدة أنزور" تربطه علاقة صداقة خاصّة بـ"بشّار الأسد"، وهو يعبّر في أعماله الفنيّة عن رأيّ "بشّار الأسد" وعموم النّظام الحاكم في سوريا.

ومسلسل "المارقون" من المسلسلات التي عملت على إلصاق وصف الإرهاب بكثيرٍ من الظّواهر الإسلاميّة وعمل "أنزور" في عموم أعماله الفنيّة على تقديم الشريحة المتديّنة بصورة في غاية القبح والبشاعة على الدّوام.

وثلاثيّة البرزخ كانت خاصّة بالحديث عن القبيسيّات، وكانت بطلة الثّلاثيّة الممثّلة "لمى إبراهيم" التي اكتشفها المخرج "أنزور".

وتجسّد دور "سلمى" وهي فتاةٌ من عائلة متحرّرة ومخطوبة لشابٍ تعشقه، لتتغيّر حياتها بعد أن تتعرّف على القبيسيّات اللّواتي يسحبنها إلى الجماعة فتلبس الحجاب، وتدخل في قوقعة التّزمّت وتترك خطيبها، وتبدأ المشكلات بينها وبين أهلها وتعاملهم وكأنّهم كفّار.

ثلاثيّة "البرزخ" في مسلسل "المارقون" تجسّد صورة القبيسيّات بوصفهنّ جماعة متطرّفة تعمل على غسل أدمغة الفتيات وتخرّب العلاقات الاجتماعيّة وتنظر للمجتمع بوصفه كيانًا مارقًا من الدّين.

وعلى الهامش فإنّ إحدى بطلات ثلاثيّة البرزخ وهي الممثّلة "سوزان سلمان" لقيت حتفها في قذيفة هاون عشوائيّة على منزلها في مدينة دمشق عام ٢٠١٤م.

"وما ملكت أيمانكم" ذروة المعركة

في رمضان عام ٢٠١٠م عُرض مسلسل "وما ملكت أيمانكم" الذي ألّفته "هالة دياب" وأخرجه نجدة أنزور.

وقد هاجم القُبيسيّات بشراسة وصوّرهن بوصفهنّ إحدى مفارخ الإرهاب، وهاجم عموم حالة التّديّن والدّعوة، وركّز النّظر على حلقات القُبيسيّات وصوّر علاقة الآنسات بالطّالبات والطّالبات فيما بينهنّ بشكلٍ يكرّس صورة المتديّنة بأنّها غارقة في الشّهوانيّة والنّفاق والخضوع.

وقد لاقى المسلسل هجومًا كبيرًا من الإسلاميّن، عدا القُبيسيّات اللّواتي يلتزمن الصّمت دومًا أمام أيّ هجومٍ يتعرّضن له، وكان أكثر الثّائرين ضدّ المسلسل د. "محمّد سعيد رمضان البوطي" الذي طالب بوقف عرضه، وحذّر من غضب الله عزّ وجلّ بسببه فقال:

"إنّني لست متنبّئًا بغيب، ولست من المتكهنين بأحداث المستقبل، ولكنّي أحمل إليكم النّذير الذي رأته عيني، إنّها غضبةٌ إلهيّةٌ عارمة، تسدّ بسوادها الأفق، هابطة من السّماء وليست من تصرّفات الخلائق؛ إنّها زجرةٌ ربّانية عاتية تكمن وراء مسلسل السّخرية بالله وبدين الله، الفيّاض بالهزء من المتديّنين من عباد الله، إنّه المسلسل الذي أبى المسؤول عنه إلّا أن يبالغ في سخريته بالله وبدينه، فيقتطع من كلام الله في قرآنه عنوانًا عليه، ويسميه ساخرًا "وما ملكت أيمانكم".

وترافق عرض هذا المسلسل مع إجراءات عمليّة غدت تقضّ مضجع الجماعات الدّعويّة في سورية على أرض الواقع، حيث تمّ منع النّقاب في المدارس وشُنّت حملات اعتقال طالت عددًا من الشّخصيّات الدّعويّة والعلميّة الشّرعيّة والأساتذة في كليّة الشّريعة.

ما دلالة كلّ هذا؟!

من الواضح أنَّ النظام كان يهدفُ من خلال هذه العروض الدراميّة إلى هدفين رئيسين:

أولًا: تشويه صورة القُبيسيّات بوصفهنّ جماعة تحوّلت إلى ظاهرة متمدّدة تقلق النّظام من حيث رسم هويّةٍ مجتمعيّةٍ لا يريدها ولا يرتضيها وإن لم تكن تشكّل خطرًا يتهدّده، فعمد إلى التّركيز عليهنّ لعزلهنّ عن المحيط الاجتماعيّ.

ثانيًا: ضرب ظاهرة التديّن في المجتمع كونها ظاهرة تقلقه وتتناقضُ مع مبادئه ويراها تصبّ في خانة التّهديد الأمنيّ عبر استهداف القُبيسيّات، فهنّ كنّ عنوانًا للنّيل من التّديّن عمومًا حتّى غدت توصف أيّ متديّنة بأنّها قبيسيّة حتّى لو لم تكن من الجماعة، كما أنّ استهداف تديّن القبيسيّات كان يهدفُ إلى شيطنة صورة المتديّن في المجتمع امرأةً كانت أم رجلًا.

ولكن ماذا كان الحال بين القُبيسيّات والنّظام عقب اندلاع الثّورة؟

القُبَيسيّات .. وأوّلُ ثلاث سنواتٍ من الثّورة

"في آذار عام ٢٠١١م اندلعت شرارة الثّورة السّوريّة، فلم يكن النّظام السّوري هو المتفاجئ الوحيد باشتعالِها بل شاركه ذلك كلّ الجماعات الدّينيّة التي وجدت نفسها أمام مشهدٍ لا مناص لها من التّعامل معه."

الإرباك سيّد المشهد والصّمت سيّد الموقف

عموم الجماعات الدّعويّة ومنها القُبيسيّات لا سيما الدّمشقيّة منها وجدت نفسَها في موقف محرج، فهي محاصرةٌ بينَ نيران عدّة؛ نارِ النّظام الذي واجه الثّورة الشّعبيّة بقمع غير مسبوق ولن يقبل من هذه الجماعات إلّا الانحياز الكامل لخياره وقراره، ونارِ المبادئ التي طالما قدّمتها هذه الجماعات لأتباعها من إعلاء شأن كلمة الحقّ في وجه السّلطان الجائر، ونارِ الأتباع الذين يضغطون على قياداتهم الدّعويّة لأجل الحصول على موقف.

لم تكن القُبيسيّات عبرَ تاريخهنّ الطويل في موقفٍ أشدّ إرباكًا من موقفهنّ في أوّل سنوات الثّورة، وحاولنَ تجاوزَ الإرباك عبر التّعميم على حلقات الجماعة بضرورة عدم التّدخّل في السّياسة والإكثار من الأوراد والأدعية لكشف الغمّة ورفع البلاء.

اتّخذت القُبيسيّات في بداية الثّورة قرارًا واضحًا بالصّمت وعدم إعلان أيّ موقف، سواء في تأييد الثّورة أو النّظام، وهذا ينسجم عمومًا مع نهج الجماعة العام، ولكنّ هذا الصّمت لن يكون مقبولًا من النّظام والأتباع على حدٍّ سواء لا سيما مع امتداد الثّورة إلى الرّيف الدّمشقيّ بغوطتيه الشّرقيّة والغربيّة والتي تشكّل حاضنةً لأعداد كبيرة من طالبات الجماعة، ولتمتدّ المظاهرات عقب ذلك إلى عددٍ من الأحياء الدّمشقيّة مثل المزّة والميدان وكفرسوسة وأحياء دمشق الجنوبيّة.

الصّمت الرّسميّ يولّد المواقف الفرديّة

صمتُ الجماعة الرّسميّ تجاه الثّورة التي تزداد اشتعالًا وتتمدّد بسرعة كان سببًا رئيسًا في انقسام الأتباع من آنساتٍ مشرفاتٍ وطالبات إلى أقسام ثلاثة كما هو الحال في عموم الجماعات الدّعويّة التي اتّخذت موقف الصّمت نفسه.

القسم الأوّل: انخرط في العمل الثّوري بأشكاله المختلفة من المشاركة في المظاهرات والإغاثة أو العمل الإعلاميّ.

وهذا القسم رأى صمت آنسات الجماعة نوعًا من الخذلان والانحياز الصّامت للنّظام، كما نظرت هؤلاء الطّالبات حولهنّ فوجدن بعض الأصوات الدّعويّة النّسائيّة قد ارتفعت في دعم صريحٍ للثّورة، وكانت أكثر الشّخصيّات تأثيرًا في هذا القسم هي الدّكتورة "حنان اللّحّام" التي كانت تمثّل توجّهًا دعويًّا خاصًّا قريبًا من توجّهات أستاذها "جودت سعيد"، حيث رأتها الطّالبات تتقدّم الصّفوف في مظاهرات داريّا في وقتٍ مبكّرٍ وتقف خطيبةً في جموع المتظاهرين بلا خوفٍ ولا وجل؛ فكان هذا المشهد ذا أثرٍ كبيرٍ في نفوس العديدِ من القُبيسيّات اللّواتي كنّ ينتظرنَ قدوةً تتقدّم الصّفوف.

القسم الثّاني: اتّخذ موقف الصّمت والحياد وكان يلتزم سياسة الجماعة، وهذا هو القسم الأكبر.

القسم الثّالث: أعلن تأييده الصّريح للنّظام وانحيازَه له مستدلًّا بموقف الدّكتور "محمّد سعيد رمضان البوطي" الذي انحاز للنّظام من بداية الثّورة، فهو عندهنَّ

العالم الذي كشفَ الله عن بصيرته فتوقّع البلاء والغضب الإلهيّ قبل حدوثه، فكان من الواجب التزام موقفه لتجاوز هذه النّقمة الإلهيّة.

وهنا لا بدّ من التّأكيد على أنّ الموقف الرّسميّ للجماعة في هذه السّنوات كان الحياد والصّمت؛ فلا المنخرطات في الثّورة ولا المؤيّدات للنّظام يمثّلن الموقف الرّسميّ للجماعة في هذه السّنوات.

اللّقاء الأوّل مع "بشّار الأسد"

في الشّهر الأخير من عام ٢٠١٢م ظهر "بشّار الأسد" محاطًا بالعشرات من الدّاعيات السّوريّات، وثارت ثائرة المجتمع الثّوري على القُبيسيّات حينها، وتمّ اعتبار هذا اللّقاء موقفًا رسميًّا من القُبيسيّات في الانحياز للنّظام والوقوف ضدّ الثّورة.

وهنا لا بدّ من ذكرِ أمرين مهمّين لفهم دلالات هذا اللّقاء وترتيب الأحكام عليه:

الأوّل: اللّقاء لم يكن خاصًّا بالقُبيسيّات بل ضمّ عموم الدّاعيات من مختلف المدارس الدّعوية، وكان العدد الأقلّ في الحاضرات هنّ القُبيسيّات؛ فقد ضمّ اللّقاء داعيات من جماعة كفتارو ومن معهد الفتح ومن معهد الشّام ومدرّسات في كليّة الشّريعة، ولكنّ الماكينة الإعلاميّة للنّظام نجحت في وصم كلّ النّساء المشتغلات بالدّعوة بوصف القُبيسيّات.

الثّاني: من خلال تتبّع ظروف اللّقاء فإنَّ عموم الحاضرات أكّدنَ أنّهن لم يكنّ على علم مطلقًا بأنَّ اللّقاء هو مع "بشّار الأسد"، وأنّهن دعين لاجتماع مع وزير الأوقاف للحديث عن ترتيبات إداريّة للعمل الدّعوي المسجديّ، وبعد وصولهنّ مكان الاجتماع أحاط بهنّ أفراد الأمن وأخذوا هويّاتهنّ وأحضروا باصاتٍ وتمّ نقلهنّ إلى قاعة إحدى الفنادق في دمشق ليتفاجأن بدخول "بشّار الأسد" عليهنّ.

شخصيًّا أقتنع بهذه الرّواية لمروري بتجربة مشابهةٍ عام ٢٠١١م بعد اندلاع الثّورة بأشهر يسيرة إذ اتّصل بي أحد مدراء الأوقاف وكنت في دمشق حينها يطلب مني الحضور لاجتماع مع وزير الأوقاف للحديث في شؤون متعلّقة بالعمل الدّعوي، واعتذرت حينها فعاود الاتّصال بي أكثر من عشر مرّات يؤكّد لي بأنّ الوزير يريد أن يتعرّف إليّ مباشرة وأنّه مصرّ على حضوري الاجتماع، فبقيت مصرًّا على الاعتذار، ولتعرض نشرات الأخبار مساء ذلك اليوم لقاءً لـ"بشّار الأسد" مع مجموعةٍ من العلماء والدّعاة؛ فسألت بعض الحاضرين فذكروا لي رواية تطابق ما ذكرته الدّاعيات والقبيسيّات عن لقائهنّ الأوّل مع "بشّار الأسد".

وهذا التّفصيل ومعرفة الظّروف المحيطة باللّقاء يفيدُ في الحكم على القُبيسيّات بأنّ هذا اللّقاء وحده لا يصلح دليلًا لاعتباره موقفًا صريحًا مؤيّدًا أو داعمًا لـ"بشّار الأسد"، وهو لا يعدّ حتّى اللّحظة انقلابًا في الموقف المعتمد من الجماعة باتّخاذ الصّمت موقفًا.

اغتيالات واعتقالات

في عـام ٢٠١٣م كانـت الآنسـة "فاطمـة الخبّـاز" المنحـدرة مـن مدينـة عـربين مـن الغوطـة الشّـرقيّة والـتي تعـدّ مـن أكثـر الآنسـات الكبـيرات قـربًا مـن الآنسـة "منـيرة قبيسـي" تمـرّ علـى حـاجزّ أمـنيّ في منطقـة المزّة، وبعـد أن تحقّـق الحـاجز مـن هويّتهـا سمح لها بالمرور بسيّارتها وما إن انطلقت حتّى عاجلها الحاجز بإطلاق الرّصاص في عمليّة اغتيال أقرب إلى الإعدام الميدانيّ.

كانت هذه رسالةً واضحةً للجماعة في أنَّ النّظام لن يتهاون مع أيّ سلوكٍ يخالف توجّهاته أو يظهر التّعاطف مع الثّورة، فكان الانتقام من آنسة وداعية كبيرةٍ مسنّةٍ فقط لأنّها ساهمت بإغاثة أهلها المهجّرين بفعل إجرام النّظام.

كمـا أنّهـا رسـالةٌ في عـدم رضـى النّظـام عـن التـزام الشّـريحة الأكـبر مـن الجماعـة الصّمت وعدم تبرّئها العلنيّ من القُبيسيّات اللّواتي انخرطن في أعمال ثوريّة فاعتقلن أو قُتلن.

والجدير بالـذّكر أنَّ العشرات من القُبيسيّات تمّ اعتقـالهنّ وأشـهرهنّ علـى الإطـلاق عالمـة الفيـزياء النّوويّـة السّـوريّة الـدّكتورة "فـاتن رجـب" الـتي تنتمـي للقبيسـيّات والـتي اعتقلت في نهاية عام ٢٠١١م بتهمة الإرهاب، وهي من أبرز ناشطات الثّورة في مدينة دوما، وكان لاعتقالِها أثر كبير على سمعة النّظام.

ولكن؛ هل حدث انقلابٌ في موقف الجماعة بعدَ ذلك؟
وماذا عن اللّقاءات التاليّة لـ"بشار الأسد" مع القُبيسيّات؟
وهل كانت بترتيب معهنّ وعلم مسبقٍ منهنّ؟
ومن هي "سلمى عيّاش" وما دورها في موقف القُبيسيّات من النّظام؟
ومن هي "خلود السّروجي" وما علاقتها مع القُبيسيّات؟

من الصّمت إلى مساندة "بشّار الأسد"

عام ٢٠١٤م بدأ انحدار الخطّ البيانيّ للثّورة السّوريّة الذي بلغ ذروته لصالح الثّورة عام ٢٠١٣م، ومع تحوّل الحال تغيّرت العديد من مواقف النّظام التّفصيليّة ومنها منهجيّته في التّعامل مع القبُبيسيّات.

اللّقاء الثّاني مع "بشّار الأسد"

في الشّهر الأوّل من عام ٢٠١٤م استقبل "بشّار الأسد" مجدّدًا وفدًا من داعيات دمشق من مختلف المدارس والتّوجّهات، ولكنّ اللّقاء هذه المرّة كان مختلفًا عن اللّقاء الأوّل الذي حدث عام ٢٠١٢م وتفاجأت الدّاعيات فيه بلقاء "بشّار الأسد".

فالعديد من المؤشّرات تدلّ على أنَّ الآنسات كنّ على علم باللّقاء قبل بضعة أيّام من حدوثه؛ إذ تواصلت بعض الآنسات القبيسيّات مع طالباتهنّ اللّواتي لهنّ إخوة أو آباء قيد الاعتقال في سجون "بشّار الأسد" وطلبن منهنّ بيانات هؤلاء المعتقلين دون ذكر سبب الطّلب وبعد حدوث اللّقاء أخبرن طالباتهنّ بأنّهنّ قدّمن الأسماء للرّئيس بيده مباشرة.

طبعًا كلّنا يعلم بأنَّ المعتقلين في سوريا لا يخرجون من أقبية الفروع الأمنيّة بورقة توضع في يد "بشّار الأسد"؛ ولكنّ هذه الحركة من الآنسات كانت حركة استباقيّة لأيّ استنكار من طالباتهنّ اللائي تأذّينَ من النّظام بصورة تُظهر لقاءهنّ بـ"بشّار الأسد" بأنّه من أجل مصلحة الدّعوة والطّالبات وأهليهنّ.

ذهاب القُبيسيّات راغباتٍ إلى هذا اللّقاء وعلمهنّ به قبل أيّام من حدوثه لا يمكن أن يكون مواقف فرديّة لمن يعرف مدى الانضباط العالي والتمسّك بالاستشارة والاستئذان في القضايا الشّخصيّة فكيف بهكذا قضيّة تتعلّق بالجماعة كلّها؟!

من الواضح أنَّ الجماعة اتّخذت قرارًا بالانحياز الهادئ للنّظام قائمٍ على مواقف غير فجّة وتجنّب المبالغة في التصريحات التي يفعلها "البوطي" و"أحمد حسّون".

الحاضرات في هذا اللقاء من القبيسيّات كنّ كما في سابقه الأقلّ عددًا رغم أنَّ عموم الكتّاب والنشطاء وصمُوا جميع الحاضرات بأنّهنّ من القبيسيّات، لكنّ الأهمّ هو أنَّ الحضور هذه المرّة كان بقرارٍ من الجماعة يحمل موقفًا صريحًا بالانحياز الضّمني للنّظام بخلاف دلالات حضور اللّقاء الأوّل مع "بشّار الأسد".

كلمةٌ مفصليّةٌ من "سلمى عيّاش"

"سلمى عيّاش" طبيبةٌ من مدينة طرطوس السّاحليّة وهي من آنسات القبيسيّات الكبيرات، وهي في الوقت نفسه أخت زوجة وزير الأوقاف في النّظام السّوري "محمّد عبد السّتّار السيّد".

ففي الشّهر الثّاني من عام ٢٠١٤م عقدت وزارة الأوقاف مؤتمرها الخامس عشر تحت عنوان "فقه الأزمة".

وألقت الآنسة "سلمى عيّاش" كلمة "الدّعوة النّسائيّة" المراد بها القُبيسيّات بين يدي وزير الأوقاف والمفتي وعموم علماء سورية، وكان ممّا قالته في كلمتها:

"كانت توجيهات السيّد الرّئيس بشّار الأسد من البداية أن يتمّ نقل العمل النسائي من البيوت حيثُ الظّلام والضّبابيّة إلى المساجد حيثُ النّور وحيثُ الضّبط".

أن تصدرَ هذه العبارة من آنسةٍ قبيسيّة كبيرة فهو إعلان مفصليّ بالنّدم على أساس المنهج الذي قامت عليه الجماعة وهو الدّعوة المنزليّة.

وكانت هذه العبارة صدمةً كبيرةً في صفوف الطّالبات اللّواتي بدأن مرحلة المفاصلة بينهنّ وبين الجماعة من حينها.

وعند اعتراض بعض الطّالبات كان تبرير الخطاب واضحًا من عموم الآنسات المشرفات بأنّنا لن نفرّط في المكاسب التي حصّلتها الجماعة وأنّنا بهذا نحافظ على الدّعوة؛ وهي الحجّة ذاتها التي برّرت بها عموم الجماعات الدّعويّة المنحازة لـ"بشّار الأسد" موقفها.

"سلمى عيّاش" معاونُ الوزير

في آذار "مارس" من عام ٢٠١٤م أصدر "بشّار الأسد" مرسومًا بتعيين "سلمى عيّاش" بمنصب معاون وزير الأوقاف، وهذه المرّة الأولى في تاريخ سوريا التي تحظى فيه امرأة بمنصب معاون وزير الأوقاف.

هذا التّعيين اللّافت يحمل في طيّاته معاني هامّة وأهداف أبعدَ من مجرّد إظهار النّظام بوصفه مناصرًا للمرأة مكرّمًا لها.

إنّ تعيين الآنسة القُبيسيّة "سلمى عيّاش" معاونًا لزوج أختها وزير الأوقاف يعبّر عن تغيّر سياسة النّظام تجاه الجماعة بعد أن كانت سياسته هي شيطنتها، وأنَّ قراره الجديد هو احتواء القُبيسيّات ووضعهنّ تحت جناحه حتى تكون الجماعة صوتًا إضافيًّا من أصوات الدّعوة الإسلاميّة المؤيّدة له والمنافحة عنه.

إنّ تعيين "سلمى عيّاش" معاونًا لوزير الأوقاف يمكن اعتباره النّقطة المفصليّة في تحوّل مواقف الجماعة من الصّمت إلى الموقف المؤيّد للنّظام بل إلى الدّخول في بنية النّظام، وهذا هو أجلى موقف جعل الكثير من الطّالبات يقعن في حيصَ بيص جرّاء هذا التّحوّل من أقصى الصّمت إلى أقصى الالتحام ببنية النّظام في أكثر مؤسساته حساسيّة وهي المؤسّسة الدينيّة الرّسميّة.

"خلود السّروجي" المُتمايلة في الأمويّ

عملَ النّظام على حشد الرّاي العام لمساندته من خلال تصدير صورة إعلاميّة تفيد بأنَّ القبيسيّات منحازاتٍ بشكلٍ مطلق للنّظام.

وكانت من أكثر الصّور التي استفزّت جمهور الثّورة، صورة داعية تقف في قلب الجامع الأموي تلبس الحجاب الأزرق الذي تختصّ به القبيسيّات وتتمايلُ على أنغام أنشودة وهي تنشد وتدعو لـ"بشّار الأسد".

هذا المشهد تسبّب بهجوم كبير من جمهور الثّورة على القُبيسيّات بناء على الحكم على صورة هذه الدّاعية وارتدائها الحجاب الذي يمثّل دلالةً على الهويّة القبيسيّة.

هذه الدّاعية اسمها "خلود خادم السّروجي"، وهي تشغل منصب المستشارة الإعلاميّة لوزارة الأوقاف في النّظام السّوري، ومسؤولة الدّعوة والإرشاد في الوزارة.

وهي زوجة أحد ضبّاط الأمن وبناء على هذا نالت هذه المناصب، وخلود السروجي هذه لم تكن في يومٍ من الأيّام من القبيسيّات ولم تجلس معهنّ في حلقةٍ أبدًا.

وفوق هذا فإنّها ترتدي عادةً الحجاب الأسود الذي لا ترتديه القبيسيّات وترتديه بطريقة مخالفة لطريقتهنّ، ومع ذلك حرصت على الظّهور الإعلاميّ بمظهر لا يمكن أن يُفهم منه إلّا أنّها من القبيسيّات اللّواتي لهنّ مكانة ورتبة في الجماعة من خلال لون الحجاب وطريقة ربطه وشكل المانطو.

وهذا فيه دلالة واضحة على أنَّ الظّهور بهذا الشّكل والطّريقة والهيئة كان مُرادًا لذاته وأنّه ليس سلوكًا ذاتيًّا من "خلود السّروجي"، بل بتوجيه من دوائر القرار الأمنيّ والرسميّ في وزارة الأوقاف وهو محاولة من النظام ترسيخ النّظام فكرة أنّ القبيسيّات جزء منه من أجل تعزيز موقفه.

هو قرارُ من؟

اعتاد بشّار الأسد أن يعقد لقاءً مع الدّاعيّات بشكلٍ دوريّ، وهو ما لم يكن قبل الثّورة، والحاضر الأبرز هو الآنسة القبيسيّة "سلمى عيّاش" التي تأخذ موضعها إلى جانب الأسد، بينما يتموضع زوج أختها –وزير الأوقاف– في الجانب الآخر منه.

بهذا يمكن القول بأنّ القبيسيّات عقب عام ٢٠١٤م على المستوى الرّسميّ في الجماعة اتّخذن قرارًا واضحًا بالانحياز إلى "بشّار الأسد" بعد أن فقدنَ القدرة على الصّمت.

وهنا لا بدّ من التّأكيد على أنَّ هذا القرار ليسَ بالضّرورة أن يكون بموافقة الآنسة الكبرى "منيرة قبيسي" فهي تعاني من مرض شديد وقد نأت بنفسها تمامًا عما يجري في سوريا من بدايته إلى اليوم، وهي حبيسة المرض في منزلها في حيّ الرّوضة الدّمشقي وفي الغالب أنّ هذا القرار هو من مجلس الآنسات الكبيرات بالترتيب مع وزير الأوقاف.

وبعد هذه المواقف السّياسيّة للقُبيسيّات من النّظام السّوري؛ ما هي مواقف الجماعات والتيّارات الدّينيّة من جماعة القُبيسيّات؟

وبعد هذه المواقف السّياسيّة للقُبيسيّات من النّظام السّوري؛ ما هي مواقف الجماعات والتيّارات الدّينيّة من جماعة القُبيسيّات؟

القُبيسيّات .. ومواقف الجماعات والتيّارات المختلفة

"في بيئة تزخر بالتّوجهات والتيارات والمدارس الدّعويّة، لا بدَّ من معرفة مواقف القبيسيّات من الآخرين، ومواقفهم منهنّ، لتكتمل الصّورة."

الموقف من جماعة "كفتارو" وجماعة "زيد" و"الإخوان المسلمين"

لم يكن الموقف من الجماعات الأخرى في صميم اهتمامات الحلقات القبيسيّة، ويمكن القول بأنّ ثقافة عموم الطّالبات القبيسيّات بالجماعات والمدارس الأخرى هي ثقافة محدودة، وذلك لعدم حضور هذا في مناهجهنّ، ولغياب الحديث عن الآخرين في الحلقات.

غير أنّ استقراء السلوك العام للقبيسيّات يوصلنا إلى أنّ العلاقة مع عموم المدارس لم تكن على مسافة واحدة.

فهناك نفور كبير وتنفير ناعم للطالبات من جماعة "كفتارو"، والعلاقة بها والموقف منها سلبيّ رغم عدم التصريح بمهاجمتها، والنّصح لأيّة طالبة تستشير أنستها في شأن الدّراسة الشرعيّة يكون بعدم الالتحاق بالمعاهد والكليّات الشرعيّة التّابعة لجماعة "كفتارو".

ومردّ هذا الموقف السّلبي من جماعة "كفتارو" يعود إلى سببين رئيسين:

الأوّل: موقف جماعة "كفتارو" مع الآنسة "منيرة"، وخروجها من الجماعة بعد خلاف شديد مع "وفاء" ابنة الشّيخ "أحمد كفتارو".

الثّاني: هو أنّ جماعة "كفتارو" هي الجماعة الوحيدة من الجماعات الفاعلة في السّاحة السّوريّة التي لها جسم نسائيّ قائم بذاته وله امتداداته بخلاف عموم الجماعات والمدارس الدمشقيّة الأخرى.

أيّ أن هناك شعورًا بالتّنافس بين الجماعتين أدّى إلى هذه الحساسية البالغة، وعمومًا كان موقف جماعة "كفتارو" من القبيسيّات سلبيًّا هو الآخر.

أمّا الموقف من جماعة "زيد" التي أسّسها الشّيخ "عبد الكريم الرّفاعي" فكان إيجابيًّا متبادلًا بين الطّرفين، فالعديد من زوجات وبنات مشايخ جماعة "زيد" التحقن بحلقات القبيسيّات، كما كانت الآنسات القبيسيّات يرسلن الحافظات لنيل الإجازة القرآنيّة من الشّيخ "أبو الحسن الكردي" الذي هو من أعمدة جماعة "زيد".

أمّا "الإخوان المسلمين" فإنّ صمتًا مطبقًا في الحلقات حيالهم، فمن هو الذي يجرؤ على ذكر اسم "الإخوان المسلمين" في ظلّ حكم "الأسد" الأب أو الابن؟!

وأمّا خارج سوريا فكان موقف "الإخوان المسلمين" من القبيسيّات بالغ الإيجابيّة فالكثير من نسائهم وبناتهم التحقن بحلقات القبيسيّات في كلّ من لبنان والأردن والسّعوديّة والكويت رغم وجود تنظيم نسائيّ في جماعة الإخوان المسلمين، إلّا أنّ هذا لم يكن له تأثير سلبي في الموقف من القبيسيّات.

كيف تعاملت السلفيّة مع القُبيسيّات؟

لا تمارس القبيسيّات هجومًا ممنهجًا تجاه السلفيّة، وإنّما يحضر ذكرها عادة عند حدوث مناسبة كزواج إحداهنّ إلى السّعوديّة، فتكون بعض النّصائح للطالبة بأن لا تغيّر ولا تبدّل بناء على ما ستراه من تغيّرات هناك، أو عند قدوم إحداهنّ من هناك وهي محمّلة بأسئلة عديدة وتشويش بناء على تغيّر البيئة الدّعوية.

أمّا السّلفية في عمومهم وعلى اختلاف تيّاراتهم فنظرتهم إلى القبيسيّات بالغة السلبيّة وتنطلق من توصيفات عديدة تزخر بها العديد من المقالات والفتاوى التي تنتشر في المواقع الالكترونيّة التّابعة للتيّارات السّلفيّة المختلفة.

وأهم منطلقات الحكم السلبيّ على القبيسيّات قائمة على التّوصيفات الآتية:

أوّلًا: القبيسيّات جماعة صوفيّة تتبع الطّريقة النّقشبنديّة.

ثانيًا: القبيسيّات يقلن بالحلول ووحدة الوجود ويقدّسن الرّموز القائلين بذلك كالحلّاج.

ثالثًا: القبيسيّات يقلن بوجوب زيارة دمشق لوجود الآنسة "منيرة" فيها وأنّ هذا أوجب وأعظم من زيارة الكعبة.

رابعًا: القُبيسيّات فرقةٌ باطنيّة تتستّر بالعمل الخيريّ والإغاثيّ.

وهذه المنطلقات الأربعة في الحكم على القبيسيّات غير صحيحة مطلقًا، وقد أوضحنا في مواضع سابقة من هذا الكتاب أنّهنّ لسن نقشبنديّات، كما أنّهنّ لا يقلن بالحلول ولا وحدة الوجود، ووصفهنّ بأنّهنّ فرقة باطنية هو وصف باطل يقوم على تخيّل غير صحيح، وكذلك لا تقول القبيسيّات على الإطلاق بأنّ زيارة الآنسة أوجب من زيارة الكعبة.

ولأنّ الحكم على الشّيء فرع عن تصّوره؛ فقد كان حكم السلفيّة على القبيسيّات غير صحيح في عمومه، فعندما يكون التّصوّر غير صحيح يكون الحكم باطلًا.

والمشكلة أنّه تمّ استصدار الفتوى رقم (١٦٠١١) من "اللجنة الدّائمة للبحوث العلميّة والإفتاء في السّعوديّة" بحقّ القبيسيّات بالاستناد إلى المعطيات الباطلة السابقة، وقامت المواقع السّلفيّة بالتّرويج للفتوى لتغدو مستندًا شرعيًّا في الحكم على الجماعة حكمًا استندَ إلى معلومات وتوصيفات باطلة من الأساس.

وقد جاء في نص هذه الفتوى:

"فالواجب الحذر من الصّوفية رجالًا ونساءً ومن تولّيهم التّدريس والتّربية ودخولهم في الجمعيات النسائيّة وغيرها لئلا يفسدوا عقائد المسلمين.

والواجب على الرّجل منع موليته من الدّخول في تلك الجمعيات أو المدارس التي يتولّاها الصّوفية أو يدرسون فيها حفاظًا على عقائدهن وحفاظًا على الأسر من

التفكّك وإفساد الزّوجات على أزواجهن ومن اعتنق مذهب الصّوفية فقد فارق مذهب أهل السّنة والجماعة"

"والمرأة التي تأثّرت بالتّصوّف إلى حدّ الاعتقاد المذكور لا ينبغي التزوّج بها ابتداءً ولا إمساكها ممن تزوّجها إلّا بعد مناصحتها وتوبتها إلى الله، والذي ننصح به النّسوة المذكورات هو التّوبة إلى الله والرّجوع إلى الحقّ وترك هذا المذهب الباطل والحذر من دعاة السّوء والتّمسك بمذهب أهل السّنة والجماعة، وقراءة الكتب النافعة التي قام بإعدادها العلماء المستقيمون على العقيدة الصحيحة والاستماع للدروس والمحاضرات، والبرامج المفيدة التي يقوم بإعدادها العلماء المستقيمون على المنهج الصحيح، كما ننصح لهنّ بطاعة أزواجهن وأولياء أمورهنّ في المعروف، والله الموفق".

وماذا عن موقف الأحباش من القُبيسيّات؟

الشّيخ "أسامة السيّد" أحد مشايخ فرقة "الأحباش" التي تنمو وتترعرع في لبنان كتب كتابًا بعنوان "دراسة شاملة عن التنظيم النسائي السّري الخطير لمنيرة قبيسي وأميرة جبريل وسحر الحلبي وفاديا الطّبّاع وسعاد ميبر" يقع في ١٢٣ صفحة؛ وهو الكتاب الوحيد الذي كُتبَ بهذا التّفصيل والحجم في الرّدّ على القبيسيّات ومهاجمتهنّ.

والكتاب في مجمله ردود على الكتاب المعتمد لمادة العقيدة في حلقات القبيسيات وهو كتاب الآنسة "سعاد ميبر" "عقيدة التّوحيد من الكتاب والسّنّة".

وعلى النّقيض من السلفيّة الذين حكموا على القبيسيّات بأنّهنّ مغرقات في التصوّف؛ فقد عمل الشّيخ "أسامة السيّد" جاهدًا لإثبات أنّ القبيسيات جزء من "السّلفيّة الوهابيّة القائلين بالتّجسيم في صفات الله تعالى".

ويخلص "الأحباش" إلى النّتيجة ذاتها التي خلص إليها أعداؤهم السّلفيّة من القبيسيّات فيقول "السيّد" في كتابه: "يجب على من علم بأحوال ومعتقدات هذه الفرقة الشّاذّة المنحرفة من النّساء عقائديًّا وفقهيًّا وسلوكيًّا أن يحذّر منهنّ خوفًا على دين المسلمين ودين أبنائهم"

ويقول: "القبيسيّات وفروعهنّ في الدّول حالة مشبوهة يعشن في غموض وتنظيم سرّي"

وهذا الموقف من جماعة "الأحباش" وإن كان لبس ثوبَ الرّدّ العلمي غير أنّني أعتقد أنّه موقف سياسيّ مغلّف بالرّدّ الشّرعي؛ فإذا نظرنا إلى السّنة التي أصدر فيها "الأحباش" كتابهم هذا سنجدها سنة ٢٠٠٣م، أي في الوقت الذي بدأ فيه النّظام حملته الإعلاميّة من خلال الأعمال الدّراميّة على القُبيسيّات.

ومن المعلوم بأنّ الأحباش والمؤسّسات التّابعة لهم تحت لافتة "جمعية المشاريع الخيريّة الإسلاميّة" لا سيما في تلكم الفترة كانوا يتحرّكون في لبنان بأوامر أجهزة

المخابرات التّابعة للنّظام السّوري، فصدور الكتاب من هذه الجهة متزامنًا مع حملة النّظام السّوريّ لشيطنة القُبيسيّات يدلّ على الارتباط بينهما.

وبعدَ استعراض مواقف الجماعات والتيّارات المختلفة من القبيسيّات؛ فلا بدّ من كلمة أخيرة نقولُها عن القبيسيّات.

كلماتٌ أخيرة لا بدّ منها

"في نهاية كلّ مطاف لا بدّ من كلمات جامعة، وللحديث عن القبيسيّات كلماتُه الختاميّة عقب التّفصيل في أحوال الجماعة من حيث نشأتها وفكرها ومنهجها ومواقفها ومواقف الآخرين منها."

لا تغفلوا عن السّياق والنّسق العام

القُبيسيّات جزء من المؤسّسة الدّينيّة الشّاميّة التّقليديّة، وعلى من يريد الحكم المنصف ألّا ينزعها من سياقها العام، فهي نشأت وتطورت على خطى متقاربة مع بقيّة المدارس الدّعويّة القائمة في دمشق.

كما أنّها لم تخرج في كثيرٍ من مواقفها عن المواقف العامّة لتلكم المدارس؛ سواء في ذلكم المواقف السياسيّة أو المواقف الفكريّة العامّة.

غير أنّ ما تميّزت به هذه الجماعة هو أنّها كيانٌ نسائيّ نشأ في بيئة وظروف سياسيّة واجتماعيّة، لا تقيم وزنًا كبيرًا للمرأة ولا تنظر إليها إلّا بوصفها كائنًا تابعًا للرّجل يتبعه كظلّه ويعيشُ في جلبابه.

فكان نشوء هذه الجماعة واستمرارها وامتدادها عنوان ثورة فكريّة على واقع اجتماعي وفكريّ سائد، وخروج غريب عن نسق فكريّ دينيّ، فلذا كانت جماعة لافتة ومثيرة للانتباه، وموضع جدل حينًا وتهويشٍ حينًا واتّهامٍ أحيانًا أخرى.

حفاظٌ على الهويّة

من المنصف أن نقول بأنّ المدرسة الدّعوية التقليديّة برغم كلّ ما يثار حولها من انتقادات في الفكر والموقف وكلّ ما فيها من سلبيّات في الأداء والممارسة؛ إلّا أنّها ساهمت في الحفاظ على الهويّة الدينيّة العامّة للمجتمع في سنوات قاسية كالحة.

والقبيسيّات نشأن في ظروف استثنائيّة، وكان لهنّ دور كبيرٌ في إحياء مظهر التدين النسائيّ العام ونشره وتعزيزه.

ففي الستينات حين نشأت القُبيسيّات استهدف حزب البعث عموم مظاهر التديّن، ومن أهمّها وأبرزها الحجاب واللباس، مستعينًا بالمدّ القوميّ والعلوّ الشيوعيّ وانحسار دور الإسلاميين، فحارب الحجاب ودعا إلى السّفور وعزّز ربط الحجاب بالتّخلّف والانحطاط في خطابه الإعلاميّ، وكانت التّنورة القصيرة "الميني جوب" هي الموضة الرّسمية التي يعزّز النّظام البعثي انتشارها، ويربطها إعلاميًّا مع الانفتاح والتحضّر.

وفي الثّمانينات حارب نظام "حافظ الأسد" الحجاب ولباس المرأة حربًا لا هوادة فيها تحت ستار الحرب على الإخوان المسلمين، ولوحقت المحجّبات ونُزع الحجاب عن رؤوس النّساء في شوارع دمشق بعنف وشراسة، ومُنع الحجاب في المدارس الثّانويّة والإعداديّة في كلّ أنحاء سوريا.

فيحسـبُ للقبيسـيّات حضـورهنّ في هـذا الواقـع الصّـعب حـين غـاب الكثـيرون وتقدُّمُهنَّ حين لاذَ المتنوّرون بالصّمت؛ فكان لهنّ الدّور الكبير في تعزيز التّمسّك بالحجاب، وتقوية انتشاره في تلك البيئات وإعلاء شأنه، ممّا كان له أثرٌ كبيرٌ في الحفاظ على مظهر التديّن النسائيّ العامّ في المجتمع رغم الضّربات القاسية التي لا هوادة فيها.

وهـذا لا ينفـي السـلبيّات والانتقـادات الموجّهـة لهـذه الجماعـة في فكرهـا ومواقفهـا، وكـذلك فـإنّ تلكـم الانتقـادات ينبغـي ألّا تنسـف مـا قدّمتـه هـذه الجماعـة مـن خدمات للدّعوة والهويّة الإسلاميّة، ولكنّه الإنصاف؛ إنّ الإنصاف عزيز.

رباطٌ نفسيّ وثيق

من خلال متابعة العلاقة بين أفراد القبيسيّات من آنسات وطالبات وجماعتهنّ فإنّ الملاحظ بأنَّ العلاقة أعمق من مجرّد انتماء لجماعة فكريّة ودعويّة، بل هو الشّعور بالانتماء إلى العائلة الكبيرة.

وقد نجحت القُبيسيّات في خلق وشائج عميقة بين الطّالبات والجماعة من خلال تجسيد جوّ أسريّ بين الطالبة وجماعتها، وبين الطالبة وآنستها.

وهـذه العلاقـة ظـاهرة بيّنـة مستمرّة ممتـدّة حـتّى عنـد اللـواتي أعلـنّ انشـقاقهنّ عـن الجماعة أو خروجهنّ منها.

فعموم اللّواتي خرجن من الجماعة إنّما كان خروجهنّ لأحد أمرين:

أولًا: رفضًا لمواقفها السياسيّة من نظام الأسد والشّعور بخذلان الثّورة ومناقضة التّعاليم التي طالما تربّين عليها.

ثانيًا: ردّة فعل على سلوكيّات بعض الآنسات وتعاملهنّ القاسي أو تمييزهنّ في المعاملة.

ونادرًا ما تجد من تركت القُبيسيّات رفضًا لفكرة الجماعة ومنهجها الدّعوي.

وعموم هؤلاء اللّواتي تركن الجماعة أو خرجن منها ما زلنَ يحملن في قلوبهم الكثير من الامتنان والوفاء للجماعة وللآنسات، وتعبيراتهنّ تنقل شعورهنّ بالامتنان للجماعة ولا يتوقفن عن التقديم بين يدي أيّ انتقاد أن يذكّرن بفضل الجماعة عليهنّ وأنّهن رغم خروجهنّ أو مخالفتهنّ للجماعة لا يمكن أن ينكرن أو ينسين ما للجماعة عليهنّ من فضل.

والحمد لله في بدءٍ وفي خَتَمِ